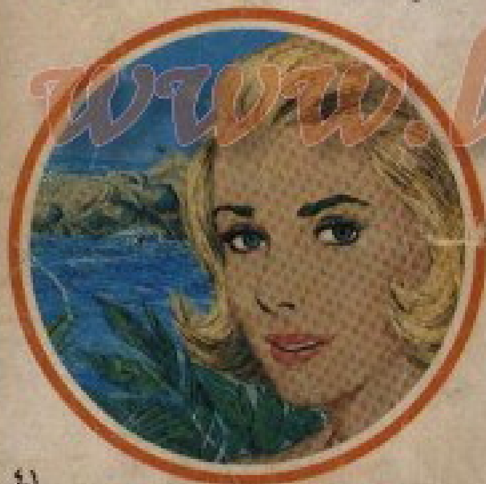


آن ويل

# شاطئ العناق







روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 41

## شاطئ العناق

الى أي حد يمكن للعاشقة ان تنتظر؟ اذا كان الحب يقاس بالسنوات والظروف فأي حب هو هذا الذي يربط شارلوت اليافعة بليام البالغ الخبرة الواسع التجربة؟

[illegible] شواطئ البحر الكاريبي وفي جزيرة سوليفان المهجورة [illegible] وكان هو كالصخرة تتحطم عليها أمواج العاطفة من قلب [illegible] الملتهب فلا يتحرك [illegible] بعد غياب تجد الجزيرة الثانية [illegible] وليام [illegible] بشوق كبير. فهل تبقى شارلوت في جزيرتها المفضلة أم تعود الصورة التي [illegible] حيث عرفت نوعاً آخر من الحياة؟

*REMA*

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| لبنان | ٣ ل.ل | الكويت | ٥٠٠ فلس | اليمن | ٨ ر | السودان | ٨٠٠ مليم |
| سورية | ٨ ل.س | [redacted] | | تونس | ١ د | U.K. | £ 1 |
| الأردن | ٥٠٠ فلس | البحرين | ٩٠٠ فلس | ليبيا | ٧٠٠ د | France | F 10 |
| العراق | ٥٠٠ فلس | قطر | ٩ ر | المغرب | ٨ د | Greece | Drs 120 |
| السعودية | ٨ ر | عمان | ٩٠٠ بيسة | الجزائر | ٨ دج | Cyprus | P 1 |

١٠٠ لا يسعني إلا أن أتذكر أن تلك الأمسية كانت الأمسية الأخيرة في عمري

ـ شكسبير هاملت

كان الجميع يحبون شارلوت مارش وفقاً لأعمارهم، ذكوراً أو إناثاً مفتونين بسلوكها المعصوم من الخطأ، أو بقوامها المشوق، أو باستعدادها لأن تعير ثيابها الثمينة لكل من في حاجة إلى ثوب خاص لموعد خاص.

كان أصدقاؤها يتفاوتون ما بين صبية صغار ومتقاعدين وحيدين. والجميع وضعوا ثقتهم في شارلوت. فساعي البريد يحدثها عن إصابته بمرض القولون، والمسؤولة عن نظافة المكتب تصف لها بتفصيل مرض ولاداتها السبع. أما البقال الأرمل فكان يطلب نصيحتها بشأن ابنته العنيدة المراهقة، بل كان الغرباء أحياناً يسكبون مشكلاتهم في أذنها المتعاطفة.

لكن يا ترى هل لدى شارلوت مشكلات خاصة بها؟ لو كان الرد بالإيجاب فهي لم تذكرها لأحد. فافترض معظم الناس أن الطريق مفروش بالورود أمام فتاة جميلة مثلها في الحادية والعشرين من عمرها، تشغل وظيفة مرموقة وتمتلك مفكرة مزدحمة بالمواعيد.

الذين عرفوها لفترة طويلة أدركوا تدريجياً أنهم يكادون لا يعرفونها، وأنها برغم ما تبدو عليه من روح اجتماعية منشرحة، متحفظة للغاية. فحتى أنيتا موراي صديقتها الحميمة لم تكن تطلع على مشاعر شارلوت الدفينة ـ أو على سبب علاقاتها القصيرة المخيبة مع الرجال الذين تعرفت بهم.

كانت أنيتا وشارلوت تتقاسمان شقة في لندن. ولقد عاشتا معاً حتى الليلة التي كشفت فيها شارلوت عن ذاتها.

كانتا في غرفة نومها تتبادلان أطراف الحديث. وشارلوت تقوم بتوضيب حقيبتها. الوقت تمضي في أن الملابس التي تناثرت على فراشها الآن كانت ملابس صيفية كلها جديدة ـ فيها عدد من السراويل القصيرة ـ الشورتات ـ وأثواب الاستحمام وأثواب الشاطئ، وأخرى بلا أكمام بينما وضعت فوق خزانتها جواز سفر ونظارة شمسية وأنبوبة ضخمة من الكريم الذي يضفي على البشرة سمرة خفيفة تحميها من أشعة الشمس. وكانت أنيتا مستريحة أمامها على الفراش الآخر تراقبها وهي تلف صنادلها في ورق شفاف. فبادرتها قائلة:

«يا لك من فتاة عاقلة رصينة. لو كنت مكانك لكنت الآن في شدة الانفعال. فكري في الأمر، غداً في مثل هذا الوقت ستكونين هناك».

مرت لحظة ولم تجب شارلوت، ثم قالت بصوت خفيض:

«أنا لا أشعر بالهدوء... بل أشعر... بالفزع».

هتفت أنيتا عالية مرددة كلمة شارلوت:

«فزع؟»

لم تكن شارلوت من النوع الذي ينزع إلى المبالغة فهي لم تكن لتستخدم هذه الكلمة في وصف حالة بسيطة من الاضطراب العصبي الذي يحدث في اللحظات الأخيرة قبل السفر.

ضحكت شارلوت لتخفيها لدى رؤية التعبير على وجه أنيتا وهي تتأرجح ما بين إحساس بالندم على اعترافها التلقائي، وإحساس بالراحة لأنها أقدمت على هذا الاعتراف. فلأسابيع منذ أن حجزت تذكرة سفرها وهي في حال من القلق والتردد المتناقضين. وبدأت أحست بالرغبة أن تترك رفيقتها في ورطتها لكنها تراجعت في كل مرة. أما الآن وليلتها الأخيرة في انكلترا ولم يبق على سفرها سوى ساعات تواجه بعدها التزامها النهائي. أحست برغبة جارفة لتصرح بما في نفسها إلى شخص تثق به.

«ماذا تعنين يا شارلوت؟»

«حسناً... هذه ليست عطلة عادية».

«ماذا تقولين بالضبط؟»

في فترة أعياد رأس السنة عندما ذكرت شارلوت أنها ستأخذ إجازتها في



شهر شباط/فبراير وتسافر إلى جزر البحر الكاريبي، فكرت أنيتا أنها تمزح. فقضاء العطلات الشتوية في جزر الهند الغربية أمر قاصر على الأغنياء فقط وليس أمراً متاحاً للفتيات العاديات ـ حتى لو كن مثل شارلوت تشغلن طريقهن في العمل من موظفة آلة كاتبة إلى سكرتيرة خاصة ذات كفاءة عالية تتقاضى راتباً مجزياً.

عندما أدركت أنيتا أن تلك لم تكن دعابة جاء رد فعلها الثاني بصورة شك في أن صديقتها ربما لن تتحمل بنفسها نفقات عطلتها هذه.

فشارلوت تستطيع إذا أرادت أن تتناول عشاءها في المطاعم الفاخرة كل مرة في الأسبوع الواحد. فإلى جانب شكلها الجميل الذي يؤكده ذوقها الرفيع في الملبس كان هناك شيء من الغموض يكتنفها الأمر الذي يثير فضول الرجال. وكانت وظيفتها تجعلها على صلة بالعديد من رجال الأعمال الموسرين. كان معظمهم متزوجين ولكن ذلك لم يمنعهم بالضرورة من أن يطلبوا منها أن تلتقي بهم خارج العمل. كان البعض الذي تستهويه محاولة سبر أغوارها العميقة والذي لا يثنيه رفضها المهذب يمضي إلى أبعد المدى في محاولة لسحق مقاومتها.

وهكذا فكرت أنيتا بشيء من الاستياء أنه ليس مستحيلاً أن يكون قد نجح في النهاية رجل جذاب مثابر في أن يقنع شارلوت بأن تترك لنفسها العنان. ولكنها لم تفصح عن هذا الظن لصديقتها خشية أن تجرح إحساسها. وكان هناك احتمال آخر ـ وإن بدا بعيداً ـ وهو أن صديقتها نجحت في أن توفر نفقات تلك العطلة. فهي لم تكن مبذرة مثل أنيتا. أثناء الأسبوع الذي تدير فيه شارلوت المنزل كان يتبقى فائض من المال تشتريان به [illegible] الصحية أو شريط تسجيل لأغانيها المفضلة. كانت حذرة جداً عند اختيار أصناف جديدة من أدوات التجميل. صحيح أنها تشتري الثياب الجيدة ولكن لأنها كانت فقط بحاجة إلى استبدال ثوب جديد بآخر استغنت عنه من المجموعة المنتقاة بعناية في خزانتها. ونظراً لجودة خامتها وصناعتها الفائقة بها كانت ثيابها تبقى صالحة للاستعمال أضعاف أضعاف المدة التي تتحملها ثياب أنيتا الرخيصة التي كانت تشتريها بشكل عشوائي تأسف عليه دائماً فيما بعد.

«حسناً ـ استمري في الحديث».

استحثتها أنيتا قائلة وهي لا يسعها إلا أن تسأل نفسها إذا كانت شكوكها على وشك أن تتأكد بأن شارلوت، كما حدث من قبل، لن تكون بجوارها في هذه الرحلة الباهظة التكاليف.

«كان يجب أن أخبرك من قبل - فهي قصة طويلة معقدة».

«أوه يا إلهي، لقد كنت أعتقد هكذا» حدثت أنيتا نفسها منذ سنوات مضت كانتا تتحدثان عن فتاة أخرى أقامت علاقة عاطفية طائشة اتفقتا على أنه من الغباء التورط مع الرجال المتزوجين أو حتى إقامة علاقات مع العازبين منهم. فرغم أنه من المفروض أن فتيات من وطنها قد تحررن قليلاً هذه الأيام إلا أن مثل هذه العلاقات تنتهي دائماً بشكل سيء للفتيات إن لم يكن للرجال أيضاً.

قالت أنيتا بصوت مسرع:

«ليس من الضروري أن تلغي لأنك قد عدلت عن رأيك. ليس الأفضل أن تتراجعي الآن في اللحظة الأخيرة من أن تستمري في شيء لست واثقة منه».

نظرت إليها شارلوت بعينين متكدرتين قائلة:

«هذا هو ما يجعل الأمر أكثر صعوبة. لقد كنت واثقة من الأمر. لم يكن لدي أدنى شك. كان يجب أن أقدم على ذلك مهما بدا جنونياً للآخرين. ولكن بمجرد أن انتهيت من كل الترتيبات بدأت أقلق... أتساءل ما إذا كنت قد أخطأت».

كتمت أنيتا أنينها داخلها وقالت:

«لماذا لا تفصحين عن الأمر لي؟ فالحديث عن مشكلة يساعدك أحياناً على رؤيتها في ضوء جديد. أتريدين فنجاناً من القهوة؟»

وبعد القهوة قدمت أنيتا سيكارة لصديقتها ولم تكن شارلوت تدخن، ولكنها أخذت السيكارة. كانت يداها ترتعشان وهي تضعها بين شفتيها.

حدثت أنيتا نفسها قائلة وهي تشعل لها السيكارة: يا إلهي، إنها في حالة غريبة. فرغم أنها في السن نفسها إلا أن أنيتا كانت دائماً تعتبر صديقتها أكثر منها نضوجاً واتزاناً. ولكن، في تلك اللحظة لم تكن شارلوت تبدو الموظفة المتزنة الثابتة. كانت قد غسلت وجهها من المساحيق، فبدا شاحباً للغاية. وكان شعرها الأشقر الطويل، الذي اعتادت أن تشبكه فوق رأسها بالدبابيس وقت العمل، مسترسلاً الآن على كتفيها. وبدت وهي تلف السيكارة بلا خبرة صغيرة





ضعيفة للغاية هشة الشخصية.

بدأت حديثها قائلة:

«لن تكون هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها إلى جزر الهند الغربية. فقد نشأت هناك في الواقع».

«ماذا! ولكني كنت أعتقد أنك ولدت في إنكلترا. لقد قلت لي ...»

«نعم، ولدت في لندن ولكن والدي سافرا بنا إلى الخارج وأنا في الرابعة من عمري. وعدت عندما كنت في الثامنة عشرة. لم أقل لك ذلك لأني لم أكن أود الحديث عن هذه الفترة من حياتي».

«ولكن لماذا؟»

ظلت شارلوت تغدو وتروح في الغرفة في قلق وقالت:

«عندما جئت إلى لندن كنت أحس بادئ الأمر أني تعيسة ووحيدة. وجدت الحياة في لندن تصبح مكاناً مرعباً إذا كنت تعيشين وحدك ولست معتادة على العيش في مدينة كبيرة. المرة الأولى ضاق صدري في قطار تحت الأرض وشعرت بذعر حقيقي. كنت أشعر أحياناً أنني لو سقطت ميتة في أحد الشوارع سيدوسني الناس بأقدامهم ولن يهتم أحد بي. فجميعهم مشغولون بالتزاحم بالمناكب لقضاء مصالحهم الخاصة».

«أعرف ماذا تعنين».

قالت أنيتا بمرارة. لقد كانت هي يوماً وافدة جديدة على لندن وتذكر جيداً أنها احتاجت إلى بعض الوقت لتتلمس الطريق.

واستطردت شارلوت قائلة:

«وأخيراً أدركت أن علي أن أستجمع نفسي. فعزمت على ألا أفكر فيما مضى وأن أركز على حياتي الجديدة. وهكذا لم أكن أتحدث عن الماضي مطلقاً محاولة ألا أفكر فيه كثيراً. ولكني عزمت أن أعود إلى هناك يوماً. وبمجرد أن حصلت على وظيفة مناسبة بدأت أوفر جزءاً من راتبي كل أسبوع. كنت أعلم أن علي الانتظار وقت طويل قبل أن أوفر المال اللازم لتلك الرحلة. أعطيت نفسي أربع سنوات... ليس فقط لأوفر المال اللازم ولكن لأنضج وأقوي نفسي».

توقفت عن الحديث. رأتها أنيتا ترتجف ثم استطردت قائلة:

عندما تكونين في الثامنة عشرة فإن أربع سنوات تبدو كأنها حكم بالسجن المؤبد. في بادىء الأمر تعمدت أن أتغيب من أيام الزيارة كل يوم في الأسبوع بما كانت تسمح به وبعد أن أنهيت تدريبي على أعمال السكرتارية لم تصبح الأمور بهذا السوء. كنت أعمل بجد في وظيفتي الأولى وبدأت أبني صداقات وبعد أن تخطيت عاماً أدركت أنني لم أكن تعيسة ولكني لم أكن سعيدة. عاد والدك قبل أن ألتقي به. ظننت أنه قد بوسعي أن أكون سعيدة. ظننت أنني وقعت في حب شخص ما ولكن هذا الحب لم يدم - كما أنه لا يدوم في سائر التجارب. فبضرورة ما، وبعد فترة أصبحت دائماً أبتعد عن الناس - أقصد الرجال. وكأنه.. كأنه ليس بوسعي أن أبدأ من جديد قبل أن أتأكد أن ما حدث من قبل قد انتهى - انتهى تماماً.

«اسمعي يا عزيزتي، كل هذا يبدو غبياً لي. أليس من الأفضل أن تعودي الى البداية؟»

«البداية؟»

رددت شارلوت تلك الكلمة بشكل غامض، ثم تنهدت وجلست وكأنها أحست بالتعب.

«أعتقد أن الأمر بدأ عندما ذهبت الى الجزيرة للمرة الأولى. ليتني لم أذهب الى هناك!»

قاطعتها أمها قائلة:

«ما هي تلك الجزيرة وأين هي؟»

«إنها جزيرة سوليفان. كنت معتادة أن أذهب الى هناك كثيراً...»

REMA



٭ - ليس ثمة من يتحرك في عالم الأشياء، وأحس بنفسي وكأني طيف من حلم.

تينيسون «الأميرة»

«حان وقت العشاء الآن يا عزيزتي»

كانت شارلوت تمسك في يدها سلة غسالتها وفي اليد الأخرى قناع الغطس وزعانفه. قبلت وجنتي أمها ثم ركضت عبر الممر نحو مرفأ الزوارق.

كانت في السابعة عشرة من عمرها تقريباً، لم تعد طفلة ولكنها لم تصبح امرأة بعد. من ثلاث سنوات مضت كانت نحيفة بشكل أثار قلق جانيت مارتن. والآن، عندما تذهبان الى المدينة، يحدق الرجال في ابنتها في طريقة تثير قلقاً من نوع آخر.

أما شارلوت فلم تكن تعي اعجابهم هذا، وبالتأكيد لم تبادله. فاذا وضعنا في الاعتبار المقاييس الجسدية - خاصة اذا كانت ترتدي نظارة شمسية داكنة - يمكن بسهولة أن نعتبرها فتاة في التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها. ولكن عندما تخلع النظارة فانك ترى في عينيها الرماديتين براءة الطفولة وصراحتها وظل للمستوى العاطفي. كانت لا تزال فتاة غير معقدة، غير مجربة.

أطلقت شارلوت زفرة ارتياح وهي تستقل زورق العائلة الذي كان اليوم تحت تصرفها ولم تسألها أمها عن مقصدها فان رالف وجانيت مارتن لم يكونا أبوين يصعب ارضاؤهما، وبشكل عام كانا يشجعان أبناءهما الصغيرة على روح الاستقلال وحب المغامرة.

وبرغم ذلك، كان لدى شارلوت شعور غير مريح بأنهما لن يرضيا رحلاتها الى تلك الجزيرة الفاتنة المهجورة، المشهورة بالنحس - جزيرة سوليفان.

فحتى لو نجحت في اقناعها بأنه ليس هناك ضرر في دخولها، لن يبقى الحال على ما هو عليه بمجرد معرفتها. فالآخرون سيأتون للذهاب إلى هناك بدورهم ولن تبقى الجزيرة ملكها بعد ذلك... مكانها السري... فلذلك سحر خاصة بها.

كانت جزيرة "سوليفان" الصغيرة تبعد قليلاً عن ساحل جزيرة التوابل المسيجة التي انتشرت فيها أسرة "مارتن" من زمن بعيد، وهي إحدى جزر الهند الغربية. كان بيتهم على الساحل بالقرب من قرية الصيادين، يبعد عن عاصمة الجزيرة حوالي نصف ساعة بالمواصلات العامة - وإن كان استخدام كلمة عاصمة قد يكون مضللاً بالنسبة إلى مدينة تعدادها لا يتخطى سبعة آلاف نسمة، وهي أيضاً ميناء لسفن الخطوط الملاحية في موسم الشتاء، لكنها لا تقارن بالميناء الحديثة في "باربادوس" ذات العمق الكبير، أو بأرصفة ميناء دولي صاخب مثل "بورت أوف سبين" في "ترينيداد".

كان على "شارلوت" أن تبحر عدة أميال بطول الساحل لتصل إلى الجزيرة مارة بمستوطنتين صغيرتين للصيادين. كانت إحداهما موطن السيدة العجوز التي عرفت منها السبب وراء إثارة جزيرة "سوليفان" هذا القدر من الذعر بين السكان المحليين.

كانت تعرف حالياً أن جزيرة "سوليفان" مكان سيء، مكان مليء بالشر، ولكن كان من الصعب أن تستكشف بالتحديد سبب ذلك. فلأكثر من عشرين سنة لم يجسر أحد أن يطأها. السكان الذين يعيشون على مقربة من جزيرة "سوليفان" قوم بسطاء يؤمنون بالخرافات، ويخافونها لدرجة تدفعهم إلى تحاشي الكلام عنها أو حتى مجرد التفكير فيها. في بادئ الأمر قوبلت تساؤلاتها بتوبيخ وتذمر من السكان الذين كانوا أحياناً يرسمون اشارة الصليب في عصبية طلباً للأمان.

وكان من الطبيعي أن يؤدي كل هذا إلى شحذ حب استطلاعها، وأخيراً، بعد أسابيع من الملاطفة، نجحت في إقناع العجوز "ماري" المسكينة العصبية بأن تكشف لها تاريخ الجزيرة.

كانت الجزيرة محاطة بشعبات مرجانية خطيرة، وهناك ممر واحد يتسع لمرور زورق إلى البحيرة المحيطة بالجزيرة شرط أن تقوده يد ماهرة. وكان هذا المدخل الوحيد إلى الجزيرة يقع ناحية البحر بعيداً عن أعين سكان الساحل.



كان الوقت ظهراً عندما كانت "شارلوت"، وقد وضعت يداً واثقة على الدفة، تعبر الممر المائي للمرة الرابعة عشرة منذ قامت بأول زيارة للجزيرة منذ عام. ولو كان ذلك ممكناً، لقضت "شارلوت" معظم أوقات فراغها في الجزيرة، ولكن لم يكن الزورق تحت تصرفها الخاص طوال يوم كامل مرات كثيرة.

تذكرت "شارلوت" وهي ترسو على شاطئ الجزيرة وقد ارتدت لباس بحر كان لونه ذات يوم في زرقة مياه البحر الكاريبي، لكنه أصبح الآن أبيض بفعل أشعة الشمس والمياه المالحة، تذكرت المرة الأولى التي وطئت فيها قدماها أرض الجزيرة.

فلاستكشاف مكان يحمل هذه السمعة السيئة بمفردها، حتى لو كان ذلك في وضح النهار، كانت "شارلوت" في حاجة إلى قدر كبير من الشجاعة، فحتى الآن، لا تسعى إلى قضاء ليلة في الجزيرة، رغم زياراتها المتعددة لها. ورغم أنه يمكنها الآن أن تتجول في الجزيرة بدون أن تتلفت وراءها.

سمعت أباها يقول مراراً أنه ليست هناك قوى خارقة للطبيعة، وأن أكثر الحوادث غموضاً لها تفسير منطقي، إذا اهتم الناس بالبحث عنه. عندما كانت "شارلوت" في السابعة من عمرها، كان على والدتها أن تلازم الفراش ثلاثة أشهر قبل أن تلد أخاها الأصغر، وخلال تلك الفترة، جاءت امرأة طيبة ومرحة لكنها أمية تدعى "فيوليت" لتتولى مهام الطهي والتنظيف وهي مازالت حتى الآن عزيزة إلى قلوب أسرة "مارتن" ويدعونها "عمتي" والسيد "مارتن". عمدت "فيوليت" إلى إمتاع أبنائه بالقصص الشعبية في الهند الغربية عن الأشباح ومصاصي الدماء.

وتركت قصص "فيوليت" المرعبة أثراً عميقاً في نفس "شارلوت" الصغيرة. وكانت تستمع إلى تلك الأقاصيص بعينين متسعتين.

لكن الآن عندما أصبحت "فيوليت" تحكيها وتبدأ الحديث عن سكان الليل، تأخذ "شارلوت" في الضحك، وفي أعماقها لم تستطع أن تقنع نفسها بأن تلك الأقاصيص هراء تماماً.

وهكذا وجدت نفسها في زيارتها الأولى للجزيرة تشق طريقها عبر النباتات الكثيفة التي تحجب الرؤية بين قلب الجزيرة والشاطئ والزوارق المارة وهي في

حالة من الذعر الكبير.

عندما أخبرتها ماري العجوز أن هناك منزلاً في الجزيرة، قفزت شارلوت على قرار يتهم الصخر الساحلي، ولم تكن تتوقع أن يختفي منه الكثير بعد مرور عشرين عاماً على هجره.

بعد أن شقت شارلوت طريقها وسط سياج من أشجار الكروم الشائكة، وجدت نفسها على مشارف أرض منبسطة. وأطلقت شهقة دهشة لما رأت، وتوقفت لحظة تحدق في انبهار فهو ذلك السر الذي كشفت عنه الآن زيارتها الجزيرة. فمنزل جزيرة سوليتان لم يكن حطاماً متداعياً من الأخشاب العفنة تكسوها النباتات المتسلقة التي تنمو في انطلاق في ذلك الجو الاستوائي. حقاً، كانت أشجار الغابة تطوق الدرابزين وتتسلق الأعمدة الطويلة في بهو الطابق الأرضي، بل إن هذه النباتات اقتحمت بعض الحجرات.

بعد أن اطمأنت شارلوت نسيت الإحساس الغريب الذي راودها وهي تقف وحيدة في مكان لم تطأه قدم إنسان ولم يسمع فيه صوت منذ زمن بعيد يعود إلى ماقبل مولدها. كانت نفسها بعقل مضطرب، هو وضع حد لزحف نباتات الغابة على المنزل. وبإمكانها مستعينة بمنجل حاد أن تتخلص من الحاجز النباتي الذي يسد الباب الرئيسي. كانت مهمتها الآن أن تتفقد الدرج الدائري الذي يتوسط البهو الواسع.

ففي وقت خلال سنوات الإهمال، سقطت شجرة في فناء المنزل بفعل إعصار، فاخترقت بعض فروعها النافذة التي تتوسط الدرج لتصبح فيما بعد نواة لنمو طفيلي تحوّل إلى مانع لا يمكن تخطيه بين الطابق الأرضي والطابق العلوي.

صعدت شارلوت إلى الطابق العلوي متسلقة أحد الأعمدة الحجرية. وتذكرت بعد ذلك أنه لو زلّت قدمها وكسرت قد تعاني أياماً عدة من الفزع والألم قبل أن يستكشف أحد زوارها الرئيس في السر الثاني المؤدي إلى الجزيرة.

ظلت طوال نصف ساعة تقطع الفروع المتشابكة المتدلية من جذور الشجرة حتى لمع جسمها بعدما أن تصبب عرقاً وتساقطت قطرات العرق على ذراعيها وظهرها. إلا أنه لم تقو أية لمسة عاطفة على اختراق هذا الستار العائق طاقة شارلوت المتدفقة.



جلست على الدرج تستريح لبضع دقائق. وبينما كانت تفكر في الأشخاص الذين عاشوا في هذا المنزل من قبل سمعت صوتاً يتحرك جعلها تشهق وتكتم أنفاسها. أحست طوال خمس عشرة ثانية تقريباً بخوف لم تحسه في حياتها من قبل. خدر يسري في رأسها استحال جسمها الحار إلى كتلة ثلج وأخذ قلبها يخفق خفقات بطيئة. ثم استعادت قدرتها على التفكير السليم. لم يكن من بالخارج شبحاً، إنه إنسان أو حيوان. لا. لايمكن أن يكون حيواناً إنه إنسان. لكن من؟ بالتأكيد أنه ليس من أهالي المنطقة، أهو غريب؟ شخص لا يعرف شيئاً عن الجزيرة؟

وبينما كانت تلك الأفكار تومض في ذهنها سمعت وقع أقدام في الشرفة. انتظرت شارلوت في حذر، وقد زايلها الخوف، لترى الشخص الآخر الذي يتجرأ بدون وعي منه الجزيرة المحرمة.

كان الرجل الذي ظهر، بعد لحظات في البهو السفلي، وهي جالسة على رأس السلم، غريباً لون بشرته كان بنياً كعامة سكان جزر الهند الغربية، لكنه كان أوروبياً. انطباعها الأول عنه، أنه طويل القامة، في مثل سن والدها تقريباً - ذلك النوع من الشخصيات التي يصفه أبوها بقوله «إنه شخص فظ المظهر». وبنت شارلوت حكمها هذا على أساس أنه في حاجة إلى حلاقة ذقنه وأنه عابس الوجه.

للوهلة الأولى لم يرها. كان هذا أمراً غريباً بالنسبة إليها. فقد كان ذلك السلم هو أول شيء لاحظته عند دخولها البهو، والواضح أنه صمم على أن يصوّب العين إلى أعلى نحو سقف الطابق الأول، حيث كانت تعلق في هذا المكان، على الأرجح، ثريا ضخمة. ولكن كان الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال أول مالفت نظر الرجل، فسار نحوه.

أملت شارلوت أن يدخل الغرفة. فلو فعل، تسللت خلسة هابطة الدرج وحاولت أن تخرج بدون أن يلحظها. فهي لا تعرف لماذا أحست أنه من الأفضل أن تفعل ذلك. ظل واقفاً مكانه عدة لحظات، بدت لانهاية لها. وأخيراً، تحرك نحو الظلمة التي تظلل أكبر غرفة في المنزل، وإن كان يخففها بعض الضوء المتموج.

التقطت شارلوت بهدوء وخفة المنجل وبدأت تهبط الدرج بخطوات

جانبية. بلغت آخر المرج، وفجأة ظهر من جديد. حدّق كل منهما في الآخر دقيقة. والآن بعدما رأته وجهاً لوجه، لم يعد لدى "شارلوت" أدنى شك أنه لم يكن هذا النوع من البشر الذي يأمل المرء أن يلقاه في مكان كهذا تضيع فيه عبثاً صرخة الاستغاثة. لقد حذرتها أمها من أن الرجال ليسوا كلهم مثل أبيها، وأن بعضهم لا يمكن الوثوق به، بل يجب تحاشيه. لم تكن السيدة "مارتن" واضحة بشأن ما يمكن أن يقدموا عليه. لذا ما أخطأ إلي ووثق بهم. ورغم أن "شارلوت" لم تلق بالاً إلى كلام أمها في ذلك الوقت، لكنها تذكرت ذلك التحذير الآن. وأدركت بحدسها أن هذا الرجل هو من ذلك النوع الذي عنته أمها. فهي لم تر من قبل ذلك التعبير الذي علا وجهه وهو خارج من غرفة الاستقبال، ولا تستطيع أن تعرفه الآن. ولكنها كانت نظرة جعلتها تندفع عبر الممر، منطلقة خارج الباب لتلقي بنفسها وسط الغابة وكأن شيطاناً يطاردها.

بلغت الشاطئ، لكنه لحق بها. وأحست أنه يحاول الامساك بها، وأوقفته ولوحت بالمنجل في وجهه. ثم وجهت إليه ضربة كان من الممكن أن تبتر ذراعه لو أصابت ولكنها لم تمسه. وبينما كان السلاح يقطع الهواء، قفز جانباً، ثم استدار واندفع نحوها. دار صراع قصير بينهما ثم جذب المنجل من يدها وقذف به بعيداً. وبعد لحظة وجدت وجهها منبطحاً على الرمال، بينما انحنى الرجل بجانبها، ممسكاً برسغيها خلف ظهرها. لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً سوى أن تلتقط أنفاسها بعدما أحست بالتعب وتملكها الفزع. فحتى لو كان لديها مزيد من القوة لتقاومه، لكان ذلك بدون جدوى. وفجأة أحست بيديها وقد تحررتا، فمررهما على ظهرها بلطف قائلاً:

«لا تفزعي. لن أمسك بأذى».

فتحت عينيها ونظرت إليه. للحظة تصورت أن الرجل الذي أمامها الآن هو رجل آخر فلم يكن هذا هو الوجه الذي أفزعها منذ قليل في المنزل. بل بدا ودوداً ضاحكاً ـ يصغر عشر سنوات عما رأته منذ قليل.

جلس على الرمال قائلاً:

«أنا آسف لا اضطررت أن أكون فظاً معك، ولكنك كنت ستقسمينني نصفين. أنت في حاجة إلى شيء تشربينه. انتظري سأحضر لك شيئاً».



وبينما كان يبتعد جلست "شارلوت" ومسحت الرمال من فمها. كان هناك الآن في المجرى المائي زورقان: زورقها وزورق صياد قرمزي اللون. جلست ترقبه وهي ترتعش وهو يخوض في المياه ناحية زورقه.

وعاد بالزجاجة وسترة صوفية قائلاً:

«من الأفضل أن تضعي هذا على كتفيك ولو لعدة دقائق. فلقد تلقيت صدمة قوية. إن أسنانك تصطك».

وبعدما لاحظ أنها ترتعش إلى حد يمنعها من القيام بأي رد فعل، وضع السترة على كتفيها قائلاً وهو يضع الزجاجة أمام شفتيها:

«والآن خذي جرعة قوية من هذا».

كان "رالف مارتن" يمنع أولاده من المشروبات بصرامة. لذا أحست "شارلوت" بالاختناق وهي تبتلع المشروب. كانت تنهار على الرمال مرة أخرى لو لم يساعدها ذلك الرجل الذي أخذ يربت على ظهرها بقوة لتلتقط أنفاسها. وعندما استعادت قدرتها على التنفس، تناول هو مشروبه. كان من الواضح أنه معتاد عليه. فقد تناول جرعة كبيرة من هذا المشروب وكأنه يشرب عصير الليمون.

«أتشعرين بتحسن؟»

أومأت برأسها إيجاباً. أحست بسترته وقد وضعها على كتفيها، خفيفة، ولكنها غالية في الصوف تشع دفئاً وشكرته قائلة:

«ماذا تفعل هنا؟»

«أستكشف المكان. سمعت أشياء عن هذا المكان أثارت فضولي لرؤيته».

«ماذا سمعت؟»

«أن هذا المكان لم تطأه قدم إنسان منذ زمن بعيد. يبدو أن من أبلغني ذلك أخطأ. من أنت؟ وماذا تفعلين هنا؟»

«أنا "شارلوت مارتن". وأعيش هنا».

اتسعت عيناه قائلاً:

«هنا؟»

«كلا. ليس هنا. ولكن في البلدة المجاورة لهذا المكان».

مد يده مبتسماً يقول:

«مرحباً بك يا «شارلوت مارتن». اسمي «ليام»... ليام هاملتون».
«أهلاً بك».
أدركت وهما يتصافحان أنها لم تر من قبل شخصاً لديه مثل هاتين العينين الزرقاوين الداكنتين.
«أهذا كل ما سمعت؟»
«حسناً، كلا، كان هناك المزيد. ولكني أعتقد أنه قيل بدافع الفضول. فهم لم يقولوا شيئاً محدداً، بل الكثير من التلميحات الخفية والقليل من الحقائق. قررت أن أحضر وأرى بنفسي، فلم يكن لدي ما أفعله اليوم أفضل من ذلك. وما دمت تأتين إلى هنا فمن المؤكد أن المكان ليس به شيء».
«أنا الإنسان الوحيد الذي يجيء إلى هنا. فلا يجرؤ أحد من أهالي المنطقة على ذلك».
«تعنين أن هناك شيئاً مرعباً بالنسبة إلى الجزيرة؟»
«من المفروض أنها مسكونة بالأرواح».
«حقاً! ألهذا ركضت بعيداً؟ هل تصورت أنني شبح؟»
«كلا، ولكني لم أسترح لنظراتك».
ابتسم قائلاً:
«أنت فتاة لا تختارين الألفاظ اللطيفة. أعتقد أن شكلي بدا شبحاً بعض الشيء».
ثم عاد قائلاً:
«لم أتصور أنني إذا أهملت حلاقة ذقني يوماً فسيجعلني ذلك أبدو شريراً».
«أنت لا تبدو كذلك... الآن. ولكن عندما خرجت من غرفة الاستقبال...»
«قلت إنه من المعتقد أن الجزيرة تسكنها الأرواح. أرواح من؟»
«أرواح من عاشوا فيها منذ سنوات مضت... أرواح أسرة «سوليفان».
«هل أفهم من هذا أنهم ماتوا جميعاً؟ ماذا حدث بالضبط؟»
«كان السيد «سوليفان» رجلاً عجوزاً وكان غنياً... أعتقد أنه ملك الملايين وكانت زوجته تصغره كثيراً، ولم ترغب في الزواج رغم جماله لكن أسرتها أجبرتها على ذلك لأن أباها كان مديناً له بالمال وكان بوسعه أن يحطمه. من المؤكد أنه كان رجلاً فظيعاً وغيوراً عليها حتى أنه اشترى هذه الجزيرة وبنى هذا المنزل وأبقى زوجته سجينة هنا لم يأتها أحد، معاملتها بطيش فكان يصرخ ويلعن، بل يضربها



أحياناً. وفي النهاية جن جنونها. كان سيقتل ابنه أيضاً لكنه تمكن من الهرب واختفى حتى جاء أحد أقربائه واصطحبه إلى إنكلترا. لكني لا أعتقد أنه تخطى تلك الواقعة. تصور لو أنك رأيت أباك يطلق الرصاص على أمك! لا يمكن لصبي أن ينسى هذا أبداً. أليس كذلك؟»
«كلا. أتصور أنه لا يمكنه ذلك. لكن من قال لك كل هذا؟»
«امرأة عجوز اعتادت أن تخدم في بيت «سوليفان». كانت في المنزل عندما حدثت تلك الواقعة. كانت تهبط الدرج عندما سمعت طلقة رصاص ورأت الصبي الصغير يركض في الممر وخلفه والده يحمل في يده بندقية. لكن عندما رأى ماري... الخادمة... لم يخرج وراء الصبي إلى الحديقة بل دخل مكتبه وانتحر».
«أعتقد أنك لا تشاركين أهل المنطقة خوفهم من هذا المكان؟»
«كلا. ليس الآن. في بادئ الأمر كنت أخاف. ولكن رغم ما يمكن أن يحدث قبلاً لم أحس بشيء مخيف أثناء النهار. أما في الليل، فمن المعتقد أن الناس رأوا أنواراً وسمعوا صرخات. ومن الأرجح أن هذا من صنع خيالهم مع ذلك. فأنا أخاف المكوث في الجزيرة بعد غروب الشمس. أعتقد أن هذا يجعلني في حالة السكان المحليين تماماً».
«بالعكس. أنا أعتقد أنك شجاعة بشكل غير عادي لتأتي إلى هنا وحدك نهاراً. فلماذا تأتين إلى هنا؟»
«المنزل يبدو جميلاً للغاية. ومن العار أن تتركه الغابة تحطمه».
لم تلتفت إليه يحطمها القلق وهي لا تدري أن هذا المشروب جعلها كثيرة الكلام بشكل يتنافى مع شخصيتها.
«سأشتري هذه الجزيرة يوماً وأعيش هنا. سأنظف المنطقة الفاصلة بين المنزل والشاطئ من الأشجار وأحولها إلى حديقة جميلة. سيصبح هذا المنزل أجمل منزل في جزر الهند الغربية. سيسعى إلى شرائه الأميركيون الأثرياء الذين يأتون إلى هنا في الشتاء. ولكني لن أبيعه حتى لو عرضوا عليّ ملايين الدولارات».
«مقارنة بأسعار المنازل في الجزر الكبرى، أعتقد أنك ستضطرين إلى دفع الكثير في مقابل ذلك».
«أوه. كلا. سأشتريه بثمن بخس. فالأثرياء يشترون مكاناً لا يستطيعون أن

يجدوا فيه من يحصل على خدماتهم.
«لا تظنين أن السكان قد يتغلبون على خوفهم إذا ما كانت الأجور عالية؟»
هزت رأسها نفياً قائلة:
«منذ سنوات قليلة حدث شيء جعلهم أكثر خوفاً. مر من هنا يخت خاص ظن ركابه أن جزيرة "سوليفان" غير مأهولة وقرروا شواء اللحم على الشاطىء. ولكنهم لم يعلموا كم كان المد عنيفاً ولم تكن لهم دراية بالتيارات المائية الخفية وأشرفوا على الغرق. أخذ سكان القرية هذه الواقعة كدليل على أن الأرواح لا تريد أن يقترب أحد من الجزيرة. لقد كنت محظوظاً إذ تمكنت من اجتياز المد يبدو من الأفضل أن تسير أمامي في طريق العودة حتى أتمكن من إنقاذك إذا تعرضت للخطر».
«أتسمحين أن أعترف بشيء كهذا؟»
«كلا، أبداً، ويمكنك ألا تقول لأحد أنك جئت إلى هنا.. أو أنني كنت هنا. أليس كذلك؟»
«كلا. لن أقول لأحد».
«أتعدني بذلك؟»
«نعم أعدك».
«معي بعض الطعام في الزورق. هل تريد أن تأكل شيئاً؟ هناك ما يكفي الاثنين».
«أشكرك كثيراً».
أحست بالدوار وهي تتجه إلى البحر، وقبل أن تأتي بالسلة من الزورق غطست رأسها في الماء كالبطة لتتخلص من هذا الاحساس.
وعندما عادت وهي تسوي شعرها الطويل بادرها قائلاً:
«كنت تبدين كالحورية عندما تغطيك المياه حتى وسطك».
مسحت وجهها بيديها وهي تجلس بجواره قائلة:
«كنت أتمنى أن أكون حورية بحر، فأنا أحب العيش في كهف في جزيرة. هل أنت في عطلة؟ لا يبدو عليك أنك سائح».
«تقريباً».



توقفت عن حل سلة الطعام ورمقته بنظرة فاحصة محاولة تحديد ما يدور وراء تعليقه هذا.
فالسياح على وجه العموم يرتدون ثياباً جديدة أنيقة، اشتروها خصيصاً لعطلتهم، ويحملون تقريباً بلا استثناء آلات تصوير، ولكن هذا الرجل لا يبدو مهاجراً من شمال البلاد. ليس فقط لأنه بحاجة إلى حلاقة، أو لأنه يرتدي بنطلوناً قديماً من الجينز وحذاء رخيصاً للشاطىء، مصنوعاً من الكتان.
كان من الصعب تصنيف هذا الرجل في فئة معينة. لم يكن حتى بوسعها أن تخمن سنه. فيداه يدا شاب، نحيل رشيق. أكثر فيه ما تكتشف عنه حركاته الرياضية. كان وجهه يبدو صغيراً أيضاً عندما يبتسم ولكن خطوطاً ظهرت حول عينيه لم ترها من قبل لدى شخص يقل عن الخامسة والثلاثين من عمره وشعره الداكن الممتزج بخط الشيب فوق أذنيه. وقالت:
«لا أعلم.. لكنك لا تبدو كسائح وهذا كل شيء».
«هذه رائحة طيبة».
قال هذا وهي تفتح غطاء الترموس لتنبعث منه نكهة لذيذة.
في السلة كان هناك ورق آخر من تحضير الفاكهة الشهية وربما أصبح لديها فنجانان من البلاستيك لتستخدمهما ككوبين. ملأت الكوب الكبير بحساء سرطان البحر الساخن قائلة:
«إنها ساخنة فلا تحرق لسانك. تناول ما تريد من الخبز».
قال هذا وقد وضعت أمامه بقية الطعام.
«هل تتناولين وحدك عادة كل هذا الطعام؟»
«نعم .. لكن لا تقلق فنحن نتناول وجبتنا الأساسية في المنزل عند غروب الشمس. ولذا يمكنك أن تلتهم هذا بكل سرور».
ابتسم قائلاً:
«لم يكن هذا ما أعني، فمعظم الفتيات النحيلات يعشن على أكل الليمون الهندي وأوراق الخس».
«أنا أيضاً لا يمكنني التخلص من نحافتي».
كانت "شارلوت" اعتادت سماع صوت أمها "وفيوليت" يستحثانها على

الطعام، ومع أنها استسلمت كما يبدو لمصيرها كأمر واقع، ظلت تفكر في أنها تعيسة، خاصة أنها ما تزال تعيش مع أختها فلافيا المسنّة الجميلة.

رفع حاجبه قائلاً:

«لا يمكنني أن أصدق بأنك تعيسة يا عزيزتي».

كانت نبرة صوته، ونظرته اليها، نظرة تقييم معجبة متأنية، ومناداته إياها بكلمة «عزيزتي»، كل هذا جديد على «شارلوت»، جديد ومثير بشكل غريب في آن. فطريقة نشأتها المتشددة وطبيعتها القانعة عملتا على تأخير تلك العاطفة التي تحس بها، كفراشة حبيسة برغبة قوية لخلع رداء طفولتها وبدء مرحلة جديدة من حياتها. لكن عندما نظر «ليام هاملتون» بعينيه الزرقاوين الداكنتين، ونظر إليها كأنها فتاة ناضجة جميلة، أحدث أول شق في هذا الغلاف. لم يخطر في بالها أن جاذبيته وإعجابه قد يكون فيهما زيف. فهي تعرف الكثير عن مخاطر البحر ولكن القليل عن الأشخاص الخطرين.

بعد أن تناولا طعامهما بادرته قائلة:

«أنت لم تر المنزل جيداً. تعال معي أريك إياه».

«ألا يمكننا أن نستريح قليلاً بعد الغداء؟»

«هل أنت متعب؟ أنا لست متعبة».

وقف بتكاسل ثم تبعها قائلاً:

«حسناً، سآتي معك».

«أتمنى أن تراه في الصيف بعد تفتح أزهاره. خلف المنزل أشجار ذات أوراق ملتوية. أما تلك النباتات المتسلقة التي تحيط بالأعمدة فتكتسي أزهاراً برتقالية اللون. وبينها أيضاً نبات الجهنمية وأنا أحب تشذيبها لكني لن أزيلها كلها».

«هل كان للجزيرة اسم آخر قبل أن تشتريها أسرة «سوليفان»؟»

«نعم، كانت تدعى جزيرة «الناظر». اسمها ولا سيما باللهجة المحلية له رنين حزين يذكرني بأشياء قديمة حدثت منذ زمن بعيد. حروب جرت في الأزمان الغابرة».

«هل هناك مكان للزوج في خططك للمستقبل؟»

«الزوج؟»



رددت الكلمة من بعده بذعر فقال:

«حسناً، أعتقد أنك تستحقين رفاقاً جيداً بما لا يسمح لك بالتفكير في الاستقرار. لكنني لن أعدها كتضحية منك يا أن يشاركك شريك حياتك حياتك هنا. ربما يفضل العيش في مكان أكثر عصرية وحداثة».

«ألا تحب أن تعيش هنا؟»

«ربما. إذا كان معي شخص مثلك يمسك بيدي عندما تظهر الأشباح في الليل».

مرة أخرى أحست بالإثارة والارتباك. لم يكن لديها شك الآن في أنه يعتقد أنها على الأقل في عمر «فلافيا». كانت تعرف في أعماقها، أن والديها لن يوافقا على مثل هذا الرجل. ولكنها كانت تستلطفه وأحست لحظة برغبة في أن تكون أكبر سناً.

بادرها متسائلاً بعد أن دخلا المنزل:

«أتأتين الى هنا دائماً؟»

«مرة كل شهر تقريباً وهذه هي المشكلة. فكلما تسلقت النباتات تنمو من جديد. كنت سابقاً خائفة. وقال لي إذا كنت أظن أن المنزل تسكنه الأرواح».

لكن كما علمت، لم يقطع الصمت المطلق سوى حفيف سحلية في مكان ما وسط النباتات المتسلقة.

همست قائلة:

«حسناً، ماذا ترى؟»

خفض صوته قائلاً:

«أنت لا تنتظرين مني أن أهتم بالكائنات الروحية بينما أنا في حضرة فتاة جميلة ترتدي رداءً بحرياً كالقطة».

ضحكت ثم علمت أنه لم يكن هذا العناق مشبوب العاطفة كتلك العناقات التي تصفها قصص الحب التي تهربها «فلافيا» الى المنزل من حين لآخر لتقرأها في سر، ربما عندما لا يكون هناك احتمال أن يباغتها أبوها. وبعد لحظات رفع «ليام» رأسه صائحاً:

«يا إلهي. أتُقبلين للمرة الأولى؟»

«نعم».

عمّا عمرك؟»

قالت شارلوت بصدق متأصل خاصة عندما تواجه بسؤال مباشر:

«ست عشرة سنة... سبع عشرة تقريباً».

أطلقها من بين ذراعيه وأخذ يضحك.

«ماذا يضحكك؟»

تساءلت في حيرة وخيبة أمل، بل في غضب أيضاً.

«التقريب فكرة كم أبلغ أنا من العمر».

هزت رأسها نفياً.

«عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، كنت أنت في المهد. يعلم الله أني لست رجل مبادئ، لكنني أقف عند حد عشاق فتيات المدارس الصغيرات. الأفضل أن أوصلك إلى المنزل، وأحذر عائلتك حتى تلاحظك بشكل أكثر صرامة يا طفلتي. تعالي معي».

«لا يمكنك أن تفعل ذلك».

«طبعاً يمكنني».

«ولكنهم لا يعرفون أنني آتي إلى هنا. ما من أحد يعرف ذلك. فهذا سرّ، ولو قلت لهم سيمنعونني».

«كان يجب أن تفكري في ذلك من قبل».

كان مستحيلاً أن تدخل معه في جدل أو تستعطفه بينما هو يسحبها على السير وسط النباتات. ولكن عندما وصلا إلى الشاطئ، ارتخت قبضته على يدها وتمكنت من جذبها.

«ولكنك وعدتني! عاهدتني ألا تقول لأحد».

«لم أكن أعرف حينذاك كم أنت صغيرة».

«ولكن ما علاقة هذا بذاك. فالوعد وعد».

«كلا، إذا كنت قد حصلت عليه بناء على مظاهر كاذبة. أنت تعلمين أنني ظننتك أكبر سناً. أليس كذلك؟»

«نعم، لكني لا أرى أهمية لسني. أراهن أنك لم تكن لتثير هذه الضجة لو كانت فلافيا في مكاني، وهي لم تتعد التاسعة عشرة من عمرها».



«هناك فارق كبير بين التاسعة عشرة والسادسة عشرة يا صغيرتي شارلوت... أنا لا أعرف من تكون فلافيا، لكنها إذا كانت في التاسعة عشرة فلا شك أنها عرفت العشاق وأنها تعرف إدراكه».

«إنها أختي، ولم يقبّلها أحد من قبل. فأبي لا يسمح لها بالخروج مع الفتيان مطلقاً».

«يقول إنها مازالت صغيرة».

«صغيرة حتى التاسعة عشرة؟ حسناً دعينا من فلافيا. أنا أقل بشأنك أنت. من المؤكد أن والديك نبهاك لتحذري الأغراب، خاصة الرجال».

وكرر قائلاً:

«أخذت حذري في البداية».

أضاءت عينيه لمعة ذكرى فقال:

«في أقصى حد ألا ترين أن هناك تناقضاً بعض الشيء، بين محاولتك جر ذراعي قبل العشاء... وبين أن تدعيني أعانقك؟»

«أنا لم أدعك... أنت لم تستأذني. كيف كان يمكنني أن أمنعك؟»

ظل يحدق وقد التمعت عيناه بالجدية مرة ثانية:

«كيف إذاً كنت ستمنعيني لو أصررت الحصول على ما هو أكثر من العناق؟»

صعدت الدماء إلى وجهها الذي لوحته الشمس وهي تقول:

«أنت لست على هذه الشاكلة».

«ماذا يجعلك متأكدة هكذا؟ ألأنني لا أمضغ الطعام في فمي وأنطق الكلمات بطريقة صحيحة؟ أم لأنه يبدو عليّ أنني أغتسل بانتظام وإن كنت لا أحلق دائماً؟ إذا كانت تلك هي مقاييسك فستنتظرك صدمات قاسية قبل أن تكبري».

«ليست هذه هي مقاييسي، وأنا لم أقصد هذا».

«ماذا كنت تقصدين إذاً؟ وماذا يجعلك تثقين بي؟»

«أنا، أنا لا أستطيع أن أشرح لك هذا. لكني عرفت... وكنت على حق».

«اعتمدت يا صغيرتي على الحظ أكثر من الحكمة».

ظلت واقفة مكانها وقد عاودتها رغبة غريبة في البكاء. ثم التفتت به قائلة:

«أرجوك يا ليام... لا تقل لأبي. لن أتسلل إذا منعتني من المجيء إلى هنا بعد

«الآن».

«يبدو لي أن هذا ليس مأموناً. فلنفترض أنك أخطأت التقدير وأحدثت فجوة في زورقك وأنت تجتازين هذا الممر؟ ما من أحد سيكون هنا لينقذك. حتى لو أنك لويت كاحلك فقط فإن هذا سيكون له عواقب وخيمة في مكان مهجور ولن يفكر أحد في البحث عنك هنا. هناك أكثر من سبب يحتم معرفة أهلك برحلاتك».

«أوه، فلذا جئت! ستفسد كل شيء، الآن. لماذا لا تهتم بشؤونك فقط؟»

«إذا رأيت طفلاً رضيعاً يحبو وسط الطريق العام، هل ستتجاهلينه؟»

«تلك مقارنة ظالمة. أنا أستطيع أن أعتني بنفسي».

«وجدت للتو أنك لا تستطيعين ذلك يا أيتها الصغيرة العنيدة».

وضع يداً على كتفها ورفع وجهها نحوه بالأخرى قائلاً:

«ربما من الأفضل حتى الهرب أن أعطيك مثالاً عما يمكن أن يحدث».

ضغط على كتفيها بأصابعه بينما انسلت يده اليمنى خلف ظهرها. ورغم أنه أزعجها في بادىء الأمر فإن خوفها منه الآن تقلص إلى مجرد خوفها من أن ينفذ تهديده ويبلغ والديها.

تحول غضبه الآن إلى اهتمام لا إرادي بادياً عليها من سكينة ثم قال:

«غيرت رأيي. فربما يكون من الأجدى أن ألجأ إلى أسلوب تربية عتيق وأضربك على مؤخرتك».

تراجع قليلاً ووضع يديه في جيبيه قائلاً:

«أنت صغيرة جداً على الأسلوب الأول، وكبيرة على الأسلوب الثاني. سأترك الأمر لوالديك. يجدر أن تبتعدي عن الجزيرة. سنأتي في زورقي ويمكننا أن نسحب زورقك خلفنا... ولا تلجأي إلى أي خدعة».

ظلا صامتين معظم الطريق، وعندما اقتربا من خليج «فورنيشيا» قالت بعناد:

«أنا أقطن في الخليج التالي».

راقبتها خلف سرعة الزورق حتى يتمكن من رفع المحرك. ثم قال:

«حسناً، هنا سنفترق».

أشاحت وجهها وقالت:

«أعتقد أنك لن تأتي معي إلى المنزل».



«غيرت رأيي».

«أوه... ليام، شكراً لك».

لمعت عيناها وهي تقول تلك الكلمات. بل كادت تحتضنه.

لم تفكر أن تسأله عن سبب تراجعه إلا بعد أن عادت آمنة إلى زورقها.

انطلق وقال بشكل غامض لحظة افتراق الزورقين:

«ستكتشفين ذلك فيما بعد. إلى اللقاء».

اتجهت صوب الدار وهي تحس بالحيرة إزاء ما تعنيه كلماته تلك، وتسأل نفسها ما إذا كانت ستراه مرة ثانية.

هبط الليل عندما كانت أسرة «مارتن» تنتهي من وجبتها المسائية، وخفض الجميع رؤوسهم عندما تلا «رالف مارتن» بعد صلاة المائدة. وبعد أن رفعت «شارلوت» و«فلافيا» بقايا الطعام عن المائدة، حملتا الأطباق إلى المطبخ الذي كان في مبنى منفصل عن المنزل. ورغم أن «فيوليت» لم تكن تعارض إن تركتا مهمة غسل الأطباق لها حتى الصباح، إلا أن أباهما لم يكن يسمح بمثل هذا التراخي. فهو لا يوافق على تشغيل الخدم في مهام يمكن للمرء أن يقوم بها بنفسه. ويرى أن الاحتفاظ بخادمة وسط أسرة بها فتاتان ناضجتان تشاركان زوجته في الواجبات المنزلية أمر غير ضروري بل مؤسف أيضاً.

كانت «هيلين مارتن» نادراً ما تعارض زوجها، ولكن بعد مرضها الذي جعل استخدام «فيوليت» ضرورياً، أصرت على الاحتفاظ بها ليس فقط مراعاة لصحتهم ولكن أيضاً لأنها كانت تعلم أن «فيوليت» بحاجة إلى هذا العمل. كانت «هيلين» تحس أحياناً أنه بدون صحبة «فيوليت» المرحة لم تكن لتقوى على تحمل الضغوط التي يفرضها عليها زوجها القاسي. كانت تحب زوجها، ولكنه لم يكن رجلاً سهل المعاشرة.

وبمجرد أن وصلت الفتاتان إلى المطبخ، وأصبحتا بعيدتين عن مسمع من في المنزل، انطلقت «فلافيا» بدون تفكير:

«لن تتصوري ما حدث اليوم».

أثناء العشاء، كانت «شارلوت» مستغرقة في التفكير في أحداث يومها حتى أنها لم تستشف أي أثر لحماس مكبوت في سلوك شقيقتها.

«سأذهب الى حفل رالفي»

«حفل رالفي»

رددت «شارلوت» هذه الكلمات بدون أدنى تعبير. لم تذهب أي منهما الى حفل رالفي على الاطلاق. لأنهما لا تستطيعان اجتماعياً مع نوع الاشخاص الذين يقيمون حفلات راقصة.

«كنت أتمنى أن يكون لدي شيء لطيف أرتديه، لكني أعتقد أن ثوبي الأزرق سيكون مناسباً «جون» يقول إن الحفل لن يكون رسمياً. أوه، كنت أتمنى أن تلتقي به يا «شارل». إنه جذاب للغاية»

«أين التقيت به؟»

«في القرية. كان يتسكع وحده، ولكنه هنا مع مجموعة من السياح لطوف البحر في يخت. إن الطاقم يرسو بالقرب من «سولت بوينت». أعتقد أنه يخت كبير»

«ما موعد هذا الحفل؟ تعرفين أن أبي لن يسمح لك بالذهاب»

«الليلة، وأنا لن أستأذن أبي. سئمت من معاملتي كطفلة. أريد أن أمرح قليلاً مثل باقي الفتيات. بمجرد أن يغط الجميع الى النوم، سأتسلل من النافذة»

«فلافيا، من المستحيل أن تفعلي ذلك! انك تعرفين أن أبي سيغضب كثيراً. أه... ولا أعرف ماذا يمكن أن يفعل»

«من يعرف، كيف سيتسنى له ذلك؟ هو يأتي الى غرفة نومنا بعد أن نذهب الى النوم»

«افترضي... افترضي أن البيت شبّ فيه حريق. حين ذاك سيكتشف الأمر»

«أوه، لا تكوني سخيفة يا «شارل». لن يشبّ حريق في البيت. في كل حال أنا لا أرتكب جريمة. إذا لم يكن أبي سخيفاً بعض الشيء، لما اضطررت للتسلل خارج المنزل»

«فلافيا! كيف تقولين هذا؟»

«لأن هذه هي الحقيقة، وأنت تعرفينها. أنا لا أقول أنه فظ صارم بالفعل ولكنه ليس شخصاً طبيعياً. فلولا أمي ما كنا حصلنا على أي قدر من الحرية. انها لا توافق على أفكاره الغريبة. قد لا تقول هذا لكني أعرف أنها لا تتفق معه في ... استمتعت والدتها عندما كانت في مثل سني، لم يمنعها أبوها من العمل أو الخروج



مع الفتيان واستخدام أدوات التجميل. أما أبي فيفكر أن مكان المرأة هو بيتها. ولكن كيف لي أن أتزوج بينما ليس مسموحاً لي أن ألتقي بالفتيان»

«سيسمح لك بالخروج مع شخص مهذب»

«ولكن «جون» شخص مهذب بالفعل. إن مفهوم أبي عن الشخص المهذب هو ألا يتناول المشروبات، ولا يدخن، ولا يرقص، ولا يقبل أية فتاة إلا إذا كانت خطيبته. ومثل هؤلاء الفتية لا يوجدون الآن، وإن وجدوا فأنا لا أريد واحداً منهم»

عندما عادتا الى المنزل، كانت أمهما الحبيبة بينما كان أبوهما ينتظر عودتهما ليقرأ لأولاده كعادته دائماً في الفترة ما بين العشاء ووقت النوم. كان الكتاب الذي يقرأه لهم الآن بعنوان «سلوك الحياة».

حين كانت «هيلين» ترمق وجه ابنتيها لم تكن لتنخدع بما يظهر عليهما من تركيز، فقد كانتا تراقبان والدهما ولكن لا تستمعان اليه.

كان هناك وقت، عندما كانتا أصغر، لم أقسا بشيء غير عادي أو محافظ في أسلوب حياتهما. كانتا حين ذاك تستمعان مشدوهتين الى صوت أبيهما العميق الشجي وهو يقرأ لهما القصص، مثل قصة «ديفيد كوبرفيلد» أو قصص كبلنغ.

ولكنه اخيراً عمد إلى قراءة كتب ذات مضمون فلسفي لا تفقهه الأحداث أو القاصرات. كان الصبيان يتململون بينما تلجأ الفتاتان الى أحلام اليقظة، بل أن «هيلين» نفسها كانت تجد أفكارها سارحة.

عندما تزوجا كان «رالف» يعمل ناظر مدرسة، وبعد مولد «شارلوت» بقليل ورث ميراثاً غير متوقع. فقرر مغادرة «انكلترا» ليبحث عن مكان يستطيع فيه هو و«هيلين» أن يهربا من ضغوط مجتمع تتصاعد فيه المادية. ويبنيان سوياً مدينتهما الفاضلة. ولأنها كانت تحبه ولا تأبه إلا بسعادته، فقد تجاهلت «هيلين» اعتراضات أهلها وأصدقائها. فبدلاً من رغبة أن تراه مرة ثانية في حالة معنوية مرحة، ولذلك كانت على استعداد لأن تتبعه الى أي مكان.

وهكذا قدما الى جزر الهند الغربية. وطوال عشر سنوات لم يحدث أي صدع جوهري في سعادتهما. كانت تشعر بالوحدة أحياناً فقد كان «رالف» يرفض

الاختلاط مع بقية المستوطنين الأوروبيين. ولكن مصالح الجزر الشاق، مع مناظرها الخلابة عوضتها إلى حد ما عن هذا النقص أثناء تلك الفترة نشر رافلس عدداً من الكتب الأكاديمية عن تاريخ الجزر، وكان دخل هذه الكتب كافياً لتغطية النفقات المتنامية لحياتهم في الكاريبي.

بدأت هيلين تقلق عندما بلغت الفتاتان سن الرابعة. فكانتا تعليمهما على يد أبيهما في المنزل. كانتا على الدرجة نفسها من التعلم مثل الأطفال الذين يلتحقون بالمدرسة إن لم تكونا أفضل. ورغم أن رافلس كان يؤمن بتعليم المرأة فإنه يعارض بشدة توظيفها الذي كان في رأيه يتعارض بالضرورة مع دورها التقليدي القيم كزوجة وأم. وأعلن عزمه على أن يبقي الفتاتين في المنزل حتى تتزوجا ولم تنجح حجج هيلين في جعل آرائه أكثر اعتدالاً.

«ولكن ماذا سيصبح من أمرهما إذا حدث لنا شيء قبل أن تتزوجا؟»

«هذا افتراض غير محتمل يا عزيزتي. فأنا أتمتع بصحة جيدة وأتوقع أن أحيا لسنوات طويلة كثيرة.»

«حمداً لله أننا أنهينا من هذا.»

قالت فلافيا وقد تثاءبت النعاس وهي تأوي إلى حجرة نومهما مع شارلوت. فأسرعا مارين: «أقلق أن أنام في ساعة مبكرة وستستيقظ مع الفجر. يمكنني الآن أن أستعد للحفلة.»

«فلافيا لا تذهبي... أرجوك... لا تذهبي.»

«شارلي، لا تقلقي.»

وقفت أختها على أطراف أصابعها ومدت يدها لتسحب من فوق خزانة الملابس صندوقاً كرتونياً أفرغت محتوياته على الفراش.

تساءلت شارلوت في دهشة:

«من أين جئت بهذا؟»

«كنت أشتريها واحدة تلو الأخرى على مراحل بعيدة. كنت أعرف أنه ستحين الفرصة لأستعملها عاجلاً أم آجلاً.»

تناولت فلافيا مرآتها الصغيرة المعلقة على الحائط وأسندتها على مجموعة من الكتب. ثم أحضرت صورة فوتوغرافية منتزعة من إحدى مجلات الأزياء التي لا



يرونها إلا عند ذهابهم إلى طبيب الأسنان. كانت صورة لوجه فتاة. أما الكلمات التي كتبت تحت الصورة كانت تقول: ابتكري هذا الشتاء شاحبة، العينان واسعتان بأهداب كثيفة. الشفتان مفروقتان. تلك هي السمات الأساسية لوجهك في السهرة هذا الموسم.

«ما من شيء يجعلك تبدين شاحبة هكذا.»

«كلا، ولكني أستطيع أن أحاكي عينيها كما أن إصبع أحمر الشفاه الذي لدي هو من اللون الذي تستخدمه. أمسكي يا شارلوت. فأنا أريد أن أركز.»

جلست شارلوت القرفصاء على فراشها ولم تتكلم إلا بعد أن انتهت أختها من التزين.

«في أية ساعة ستعودين؟»

«لا أعرف. ليس قبل منتصف الليل. وربما بعد ذلك.»

«كوني حذرة أيتها الشريرة.»

نصحتها شارلوت بذلك وقد تذكرت كم أصبحت متحررة بشكل غريب بعد أن ابتلعت جرعة واحدة من ذلك الشراب...

ولكن فلافيا لم تكن مصغية إليها وبدت قلقة وهي تنظر إلى ساعتها. «أين... انظري كم الساعة الآن؟ عزيز... سيكون في انتظاري. إلى اللقاء يا شارلي. لا تقلقي سأستمتع بوقتي وسأقص عليك كل شيء في الصباح.»

ولكن شارلوت لم تتمكن من أن تمنع نفسها من القلق. ولم يكن خوفها من افتضاح الأمر هو الذي جعلها في قلق وتوتر. فهي من وقت لآخر تسمع عن هذا النوع من الناس الذين يطوفون البحار في إثارة كبيرة نعلم. ولذا كان لديها شك مريع من أن فلافيا قد تجد في الحفل متعة أكثر مما تجد متعة.

كانت تأمل في ألا تظهر نساء الحفل ازدراءهن لثوب فلافيا الذي حاكته لها أمها أو لطريقتها الساذجة في التزين.

لم يكن قد مضى على ذهابها أكثر من ساعة عندما ارتعدت شارلوت حين ومض خيال عبر عتبة النافذة المضاءة بشعاع القمر.

«فلافيا لم أتوقع عودتك قبل ساعات.»

تسللت فلافيا من النافذة ودخلت الغرفة لترتمي على الفراش وتنفجر باكية.

«ماذا حدث؟ أرجوك اخفضي صوتك. ستوقظين أمي وأبي».

دفنت فلافيا وجهها في الوسادة، بينما كان جسدها كله يرتعش بنشيج مكتوم، وعندما وضعت شارلوت يدها على كتفها، أشاحتها بعيداً، ورفعت رأسها الشاحب في صوت الغرق.

«ابتعدي عني! دعيني وشأني. إن هذا نتاج غلطتك».

«أنا؟ ماذا فعلت؟ عمّ تتحدثين؟»

قالت بحدة وقد نسيت أن تخفض صوتها:

«كنت تتظاهرين بالقلق لدخولي إلى الحقل. بينما لم تنبسي ببنت شفة عما فعلت. أليس كذلك؟ لم تخبريني من أنك سردت تاريخ أسرتنا بالكامل على شخص غريب عنا تماماً. ماذا تظنين كان شعوري عندما سألني ذلك الرجل المتوحش عما إذا كنت أختك. جعلتني أظهر كالبلهاء أمام الجميع؟ لم أشعر بمثل هذا الذل من قبل. للمرة الأولى في حياتي كنت سأستمتع بوقتي، وقد حطمت كل شيء».

وأمام قنوطها بين الغضب والاحباط أسلمت نفسها لموجة ثانية من البكاء.



٣- إنها فتاة لا دروس ولا مدرسة ولا غيرها، وهي سعيدة جداً أنها ليست عجوزاً بعد لذا يمكنها أن تتعلم.

شكسبير - «تاجر البندقية»

صاحت شارلوت مستحثة أختها:

«لقد استيقظوا. فهناك شخص قادم. أسرعي! ادخلي في الفراش».

ورغم ضيقها، لم تكن شارلوت بحاجة إلى ترديد هذا الكلام مرة ثانية، وبسرعة البرق كانت فلافيا تحت أغطية الفراش. وبالكاد كان هناك وقت لتقفز شارلوت في فراشها قبل أن ينفتح الباب.

لم تكن أمها هي التي جاءت لتتحقق منهما وقد رقدتا ساكنتين بصورة غير طبيعية بدون أدنى حركة. فتحت شارلوت عيناً واحدة لترى أخاها الصغير وقد وقف فوق رأسها فأطلقت زفرة ارتياح.

«كيت! ماذا تفعل هنا؟»

«سمعت أحداً يبكي. ماذا هناك؟»

«بالتأكيد كنت تحلم. فلافيا نائمة، وأنا لا أبكي».

«ولكنني سمعت بكاء. أنا واثق من ذلك».

«حسناً، عد إلى فراشك».

نهضت شارلوت من فراشها وساقت أخاها إلى غرفة الصبية.

كانت تحب كل أخوتها، ولكن كيت كان حبها الوديع. كان أخاها المفضل لسواه، واكب المرحلة في نموها حين أصبحت ناضجة بالقدر الكافي حتى لم ترفض تدليله وصغيرة إلى الحد الذي يمكنها من التمتع بدور الأم معه.

«لم يكن ما سمعت حلماً».

قال «كيث» باصرار وهي تمس أطراف الغطاء: «لقد أمسكت بخيوط الأخرين. لم يبدأ».

انحنت لتقبله فتلقت في التقابل عناقاً حياً وهو يقول:

«تصبحين على خير يا عزيزتي «شارلي»».

زال انسدادها بهذا التدليل لأنه كان يشعر بالنعاس. لقد كان يناديها هكذا عندما كان صغيرا وقد اشتق اسم التدليل هذا من أغنية اسكتلندية عن الشارلي الصغير.

كانت الأغنيات الشعبية لبريطانيا وجزر الهند الغربية وبعض الاسطوانات الكلاسيكية هي كل ما يعرف أبناء «مارتين» عن الموسيقى سمعوها من جهاز متنقل مشغل للاسطوانات. أما معرفتهم بالأغاني الحديثة الواسعة الانتشار فلا تتعدى وصول بعض المقتطفات الى سمعهم من أجهزة الراديو المجاورة.

عندما عادت «شارلوت» كانت «فلافيا» قد خلعت ثيابها فالرعب الذي سببه لها «كيث» نجح في تهدئتها.

جلست «شارلوت» على حافة فراش أختها قائلة:

«فلافيا، أنا آسفة لما حدث، ولكن كيف كان لي أن أعرف أن «ليام هاملتون» له علاقة بمعارفك أصحاب اليخت؟ لم يكن يبدو عليه أنه سائح غني. ولما لم أخبرك عن لقائي معه لأنك كنت في حال انفعال شديد بشأن الحفل. ظننت أنك لن تهتمي بهذا الموضوع الا بعد عودتك».

«أين التقيت به؟»

«أوه... على بعد أميال قليلة من الساحل».

«أنت تعرفين أنه ما كان لك أن تتحدثي مع الغرباء».

«ولكنك تحدثت مع «جون»».

«هذا وضع مختلف. «فجون» يقاربني سناً، أنا لم أكن لأصادق رجلاً في سن «هاملتون» هذا. فبوسع أي شخص أن يرى كم هو كريه».

«كريه؟ لماذا تقولين هذا؟»

«أظن أنك استلطفته».



«ليس في بادئ الأمر، ولكني استلطفته فيما بعد».

«ما كنت ستفعلين ذلك لو أنك رأيته وهو يتصرف بحماقة مع تلك المرأة».

«يتصرف بحماقة! ماذا تعنين؟»

«كانا يرقصان معاً وكانت تحيط عنقه بذراعيها، بينما كان هو يهمس شيئاً في أذنها... بل أنني رأيته يقبلها ـ أمام الجميع. أعتقد أنه كان منتشياً... وكانت هي أشد منه... يحطمني. فقد قالت له شيئاً عني... أعتقد أنها كانت تهزأ بي. وهي ترتدي ثوباً من الحرير «الشيفون» وكثيراً من المجوهرات. بعد ذلك ظل يحدق بي، ثم طلب من «جون» أن يقدمه الي. وبمجرد أن سمع اسمي قال: «أأنت أخت «شارلوت»؟» ثم سألني لماذا كان واضحاً محرجاً بمجيئي. كنت... كنت أود لو تبتلعني الأرض في تلك اللحظة عاد «جون» وبعضه مشروب لي. ولكن «هاملتون» هذا رفض أن يتركني أتناوله وشربه هو، وعندما غضب «جون» دفعه الى أحد المقاعد وجذبني من ذراعي ليعيدني الى المنزل، قائلاً لتلك الارستقراطية: «سأعيد هذه الطفلة الى منزلها فقد تأخرت عن موعد ذهابها الى الفراش» ـ هذه الطفلة! يا له من جبان حقاً؛ وفي تلك اللحظة كان الجميع يحدقون بي».

«كان محقاً. فقد تأخرت فعلاً عن موعد ذهابك الى الفراش. ولا أعتقد أنك تصفينه بأنه كريه لمجرد انه استنتج أنه ليس من المفروض أن تكوني في مثل هذا المكان».

«ليس هذا هو كل ما قاله. لقد عاملني...»

انتفضت عينا «شارلوت» وهي تقول:

«ماذا؟»

«قال: والآن ـ تعرفين ما هو العقاب. فلا تدعي فضولك يقودك الى التهلكة مرة أخرى. لو لم أكن قد التقيت بأختك، ربما كنت ستندمين على مغامرتك الطائشة هذه. ماذا كان يعني بقوله هذا؟»

«... أعتقد أنه يقصد أنه لو لم أكن قد ذكرت اسمك، لم يكن سيتعرف عليك، وأنك ما كان يجب أن تذهبي الى هناك».

«كيف عرف هذا؟ من المؤكد أنك قلت له أكثر من اسمي».

فقلت له وقد أنك أكبر مني سناً أبي لا يسمح لك بالخروج مع الفتيان.
قالت هذا الشخص غريب! أكيد أنك جننت. ليس من حقك أن تناقشي ماضي»

«لم أفعل ذلك تماماً بعدما هذه الثريا صدفة استطراداً لي، كان يتحدث عنه. بالطبع أكنا تتبادلان حديثاً ذا طبيعة خاصة. هل لي أن أسأل ماذا كنتما تقولان؟»

أدركت شارلوت أن عليها أن تترك فلافيا الغاضبة وحدها، وأن تكشف لها عن مكان لقائها بهاملتون. شرحت لها كل شيء، وكيف أنه خاطبها أيضاً ظناً أنها أكبر سناً من حقيقتها.

استشاطت فلافيا غضباً من هذا الاعتراف:

«شارل! يا له من أمر فظيع بالنسبة إليه»

«لم يكن فظيعاً بل ارتحت إلى ذلك العناق»

ارتعشت فلافيا تقززاً لاستعادتها هذه الذكرى قائلة:

«حسناً ارتحت إليه؟ أما أنا فقد كرهته! حسناً، إن هذا يثبت كم هو شخص سيء. إنه من رجل مهذب يقدم على معانقة رجالي ويعانق تلك المرأة في يوم واحد».

كانت هناك لحظة صمت قبل أن تقول شارلوت:

«أنا متعبة. سأنام. تصبحين على خير».

ولكن برغم الساعة المتأخرة والتوتر غير المعتاد الذي تعرضت له طوال اليوم، مر وقت ليس بقليل قبل أن تتمكن من النوم. كان آخر ما تفكر فيه عادة قبل أن تغمض عينيها هو منزل جزيرة سيلفان الذي ستملكه. ولكن الليلة لم يكن بوسعها أن تفكر في المنزل بدون أن تفكر في ليام هاملتون.

هل كانت فلافيا محقة؟ هل هو حقاً رجل سيء؟ ومن هي تلك المرأة التي تدعى تارا؟

ولحسن الحظ لم يخبر كيت مارتن صباح اليوم التالي إلى ما أزعجه في نزهة الليلة الماضية.

بعد الإفطار أعطى رالف الأولاد الثلاثة دروسهم. أما شارلوت فقد أعفيت من هذا الروتين منذ عيد ميلادها السادس عشر إلا أنها حتى الآن ينبغي عليها أن تخصص بضع ساعات كل أسبوع للدراسة، ولكنها أعطيت حرية



اختيار مكان وزمان إنجاز تلك المهمة ما دامت تقرأ الكتب التي يختارها لها أبوها، وحتى يحسن أنها لا تهمل واجبها كان رالف يضع لها امتحاناً كل شهر تقريباً أو يطلب منها كتابة بحث في موضوع دراستها الحالي.

بعد تناول وجبة الغداء اصطحب رالف الأولاد الثلاثة وذهبوا إلى المكتبة العامة في العاصمة. وربما كانت أمها و فلافيا منشغلتين ببعض الإصلاحات المنزلية انسحبت شارلوت إلى أقصى الشرفة لكتابة مذكراتها وحينئذ رفعت رأسها وتطلعت صوب البحر عندما شدها أزيز بعيد لصوت محرك. كان هناك زورق سباق قرمزي يعبر وسط مياه الخليج مقبلاً من ناحية سرك بوينت.

ومع أن عينيها سجلتا بريق ذلك اللون الزاهي كان عقلها مستغرقاً للغاية مرت بضع لحظات قبل أن تعود إلى الحاضر. وفي نفسها أدركت أن الزورق حول مساره وبدأ يقف في خط شبه دائري واسع الشاطئ بالقرب من مرفأ عائلة مارتن.

«ترى من هذا؟»

تساءلت إيلين مارتن بعدما أصبح جلياً أن زائراً قادماً نحوهم.

ولكن ما من واحدة من بناتها تطوعت للإجابة. أما هي فلم تلحظ التعبير الذي علا وجهيهما والذي يؤكد أنه كان بوسعهما أن تفعلا ذلك.

وبينما كان ليام يقترب من المنزل رأت أنه كان حليق الذقن اليوم وأنه يرتدي قميصاً وسروالاً ملتصقين بجسده بطريقة تختلف عن ملابس أبيها وأخويها.

وصل إلى حافة الشرفة وقد بدا عليه أنه لم يلحظ الفتاتين وجه ابتسامته لإيلين التي جلست في حجرة المعيشة، ثم قال:

«مساء الخير. هل أنت السيدة مارتن؟ أعرفك بنفسي. اسمي هاملتون»

مدت يدها لمصافحته وقالت في تردد:

«كيف حالك؟ زوجي ليس في المنزل الآن أظنك جئت لرؤيته»

«نعم.. كنت آمل أن أراه»

«أخشى أنه لن يعود سريعاً. أيمكنك أن تحضر غداً؟ هل هناك رسالة يمكنني إبلاغه إياها؟»

«لا، لست هنا لمهمة معينة يا سيدة مارتن. إنها مجرد زيارة اجتماعية»

«أوه»

للحظة وقفت «هيلين» مأخوذة. منذ زمن لم يأتيهم زائر فأحست بالاضطراب.

«ربما جئت في وقت غير مناسب؟»

«أوه كلا. كلا على الاطلاق. تفضل بالجلوس. كل ما في الأمر أننا لا نرى كثيراً من الناس هنا....»

جمعت شتات نفسها ثم استطردت قائلة:

«هذه هي «فلافيا» ابنتي الكبرى»

«كيف حالك يا آنسة «مارتن»؟»

كانت «شارلوت» قد تركت مقعدها فلم يمكنها أن ترى وجه أختها هذه اللحظة ولكنها كانت ترى وجه «ليام». لم يكن في تعبير وجهه ما يدل على أنه ليس بحاجة الى هذا التعريف.

ثم قالت «هيلين» قبل أن تعرفه «بشارلوت»:

«فلافيا، اذهبي وأبلغي «فيوليت» أن لدينا زائراً. ماذا تفضل يا سيد «هاملتون»؛ قهوة أم شراباً بارداً؟»

«شراب بارد لو سمحت».

وبينما كانت «فلافيا» تجري الى الداخل واصلت السيدة «مارتن» كلامها موجهة «شارلوت».

لم يدع «ليام» يده هذه المرة وقابلت عيناه الزرقاوان باهتمام واضح وهو يقول:

«مرحباً مرة ثانية. لقد التقيت أنا «وشارلوت» من قبل».

لاح التوتر على «هيلين» وهي تقول:

«هل التقيتما من قبل؟»

«نعم... بالأمس، وجدتني اعتديّ على أحد شواطئها المفضلة في البداية وأظهرت ضيقها لكنها لانت فيما بعد وسمحت لي أن أقاسمها شاطئها».

لم تسأل «هيلين» عن سبب تجاهل «شارلوت» ذكر تلك المقابلة فهي تعرف السبب. إذ كان السبب نفسه الذي تحسه الآن حين تفكر أنها ستضطر لأن تخبر زوجها عن زيارة السيد «هاملتون». سيكون عليها أن تواجه استياءه بل ربما غضبه لما قد يعتبره اقتحاماً غير مبرر لحياته الخاصة. ولكنها أبعدت ذلك القلق



لشعورها بالغبطة في التحدث مع زائر ما... أي زائر.

«هل جئت لتقيم هنا يا سيد «هاملتون»؟»

«لم أحضر بهذه النية ولكن الخاطر مر بعقلي. أعتقد أنك أمضيت هنا عدة سنوات؟ فهل تنصحينني بذلك؟»

«المناخ هنا رائع، والجزيرة في غاية الجمال والهدوء. ولكن هناك بعض السلبيات»

«وما هي؟»

«أعتقد أن السلبية الأساسية هي صعوبة حصولك على دخل يغطي نفقات الحياة. ولذا كان من الصعب على ذلك النمط من الناس الذي يفضل الهجرة الى استراليا أو كندا على أن يأتي الى هنا فلا توجد فرص عمل تكفي لتغطية حاجات السكان الأصليين لجزر «الهند الغربية» تناسب فقط الأثرياء أو تلك التي على شاكلتنا وترضى بحياة بسيطة. زوجي كان يعمل ناظر مدرسة. أما الآن فهو كاتب. ولذا يمكننا أن نقيم في المكان الذي يحلو لنا. هل أنت أيضاً حر بهذا المعنى يا سيد «هاملتون»؟»

«نعم بكل المعاني»

«أليس لك أسرة ترتبط بها؟»

«كلا. لا أحد غيري».

«في هذه الحالة، أنت تشعر بشيء من الوحدة هنا! إن هناك الكثير لتفعله طوال النهار ولكن المكان يصبح هادئاً للغاية بعد غروب الشمس. أعتقد أن «باربادوس» أو «ترينيداد» قد تتناسب أكثر مع حياة الأعزب».

«نعم معك حق. كما قلت لك أنا لم أعط هذه الفكرة تفكيراً جاداً بعد».

«وأين تقطن الآن يا سيد «هاملتون»؟»

«ليس لي منزل. نشأت في «انكلترا» ولكنني قضيت معظم سنوات حياتي بعد بلوغي سن النضج في الترحال».

«أوه، حقاً؟ يا لها من حياة مثيرة».

انتظرته حتى يكمل حديثه، ثم ترددت في أن تسمعه عندما لم يفعل ذلك. أما «شارلوت» فقد كانت أقل حياء في رغبتها إرضاء فضولها فقالت:

«هل اليخت ملكك؟»

بالبحث.

بعد فوات الأوان تذكرت أنها لم تعرف بأمر هذا البحث إلا بسبب تسلل فلافيا خارج البيت، فاستطردت:

«أشرت إليه في حديثك أمس».

«حقاً؟ لا أذكر لكن هذا البحث ليس ملكي، إنه ملك كلارا مونتيفالكو... الأميرة مونتيفالكو».

«الأميرة مونتيفالكو؟ هل تعني أنها أميرة حقيقية؟»

«هذا يعتمد على ما تعنيه أنت بكلمة حقيقية. مونتيفالكو هو لقب من بين مئات الألقاب الإيطالية الغامضة. إنها اليوم مجرد أسماء. اكتسبت كلارا هذا اللقب عن طريق الزواج».

تذكرت شارلوت ما قالته لها فلافيا عن ليام وكلارا فتساءلت:

«وأين الأمير مونتيفالكو؟ هل هو معكم على البحث أيضاً؟»

«كلا، إنه في مكان ما في أوروبا. فهما منفصلان».

عادت فلافيا وهي تحمل أكواب عصير الليمون. وعندما وقف ليام، رمقته بنظرة عصبية خاطفة. خيل إليها أنه صعدت الدماء إلى وجهها. ولكن جيليان لم تلحظ تورد الخدين ولا احمرار الوجه. أما شارلوت فقد لاحظتها ومن هذه اللحظة وثقت أنه لن يغرر أبداً بابنتها ويكتشف أمرها. ولكن في هذه الحالة ترى لماذا جاء؟ مكث قرابة نصف ساعة تحدث في معظمها مع أمها. وعندما نهض ليرحل سار معه الجميع حتى الردهة. لم يصافح شارلوت ولكنه ربت على كتفها وكأنها في عمر كيت تقريباً.

«وداعاً يا صغيرتي شارلوت شكراً لدعوتي إلى الغداء. ولكن الأفضل ألا تكرري الدعوة».

وعندما اختفى الزورق عن الأنظار قالت شارلوت لأمها:

«أرجو ألا تكوني غاضبة لأني التقيت معه بالأمس».

«كلا. ولكن ليس من الحكمة أن يكون لك ود بهذا الشكل مع الأغراب. هل ستلتقينه؟»

«لم أكرهه. يبدو أنه مثقف».



أضافت جيليان تلك الكلمات الأخيرة وهي تفكر بصوت عال.

«طالح، تلك هي الكلمة التي كنت أبحث عنها بالأمس. كنت أعرف أن هناك كلمة تصفه تماماً».

«هل أنت متأكدة أنك تعرفين معنى هذه الكلمة يا عزيزتي؟»

«بالطبع. فأنا لما لم أعرف معنى كلمة أبحث عنها في القاموس. وجدت معنى منحرف وغير مستقيم ولكنها عادة تستخدم لوصف الأشخاص... الأشخاص الذين يبددون حياتهم».

ابتلعت أمها دهشتها. فكانت تظن أن شارلوت ما زالت صغيرة على القيام بعملية ربط بين ما تقرأ في الكتب وبين الناس الذين تتعامل في الحياة. كانت جيليان تشك في أن أياً من أبنائها أبعد عن تفهم أمور الحياة كما كان يريد لهم أبوهم. ورغم وعيها هذا كانت مفاجأة لها أن تعرف أن شارلوت التي تبدو غائبة في الرواية بوسعها أن تكون رأياً صائباً بالنسبة إلى شخصيات الناس.

«هل ستقولين لأبي عن مجيئه؟»

«هل هناك سبب يمنعني من ذلك؟»

«كلا. بالتأكيد. ولكنه لا يحب الأغراب عادة. وأعتقد... حسناً أعتقد أن معرفة الناس أمر مهم للأطفال».

«ولكني لا أظن أن السيد هاملتون أو رفاقه يعنون لنا شيئاً يثير اهتمامهم. وأشك في أنه سيزورنا مرة أخرى. ولذا فليس من الأهمية في شيء أن يستلطفه أبوك أم لا. لنهبط بنا إلى الشاطئ».

ولكن عند عودتها إلى الشرفة لم يكن من السهل على أي منهما أن تركز في العمل الذي أوقفه مجيء هاملتون. فجلست شارلوت تطلع عليها وتفكر في أصحاب البحث وخاصة كلارا مونتيفالكو. أما جيليان فكانت تشعر بالقلق، مع أنها كانت تتوقع، وتتهيب، في آن واحد مجيء الوقت الذي يبدأ فيه أبناؤها الاعتراض على آراء رالف، لم يخطر إليها أن تأتي أول بادرة لعدم الارتياح من ابنتها الصغرى.

كانت تتوقع أن فلافيا ستكون أول من سيتمرد ليس لأنها الكبرى ولكن أيضاً لأنها لا تتفق مع أبيها كثيراً. فرالف كان يريد أن يكون كل أولاده

ذكوراً وبعد مولد «فلافيا» خاب أمل كبير له ثم صار يفضل «شارلوت» لأنها أكثر ذكاء و لا يجهد نفسه كثيراً لاخفاء هذا التفضيل.

ولكن عندما علم الأب لم تبلغه «هيلين» بأمر الزائر فقد بدا غريباً وقلقاً على غير عادته وكانت نظرة واحدة في وجهه كافية لأن تكسبها كل شيء.

وبعد أن دلف الى غرفة نومه ومن ورائه أمها بادرت «شارلوت» اخوتها متسائلة:

«ماذا حدث؟»

أجابها «روب» قائلاً:

«لا أعرف. كان في صحة طيبة حتى وصلنا الى منتصف طريق العودة، ثم فجأة أحس بألم فظيع»

وأضاف «بيتر» قائلاً:

«كان وجهه منقبضاً وكان لا يقوى على الكلام. كان ذلك شيئاً فظيعاً»

ركضت «شارلوت» نحو غرفة والديها وتساءلت:

«هل أذهب لأحضر الطبيب؟»

أجاب «رالف» قبل أن تتكلم زوجته قائلاً في غضب:

«لست في حاجة الى الطبيب. أرجو منكم أن تتركوني في سلام. لا داعي للقلق ودعوني أستريح»

عندما ذهبت الفتاتان لتناما تلك الليلة تساءلت قائلة:

«ما تصورك عن سبب مجيئه؟»

«مجيء من؟»

هكذا ردت «شارلوت» شاردة الذهن. فقد كانت قلقة بشأن أبيها

«هذا الرجل الذي يدعى «هاملتون»، من سيكون اذن؟»

«ليس لدي أدنى فكرة. هل هذا أمر هام؟ كنت أتمنى أن يسمح أبي بمجيء الطبيب. فهو يبدو مريضاً جداً»

«لن يضيره أن يفقد أعصابه. وهذا ما سيحدث إذا جاء الطبيب بدون إذن منه. ولكن ليس من العدل بالنسبة الى أمي. فهي قلقة الى حد المرض»



«وأنا لم أفهم أبداً السبب الذي جعلها تتزوجه»

«فلافيا!»

صاحت «شارلوت» في فزع.

«حسناً هل تفهمين ذلك أنت؟ إنه لم يحاول أبداً أن يجعلها سعيدة. أما هي فعليها أن تفعل دائماً ما يريد.. علينا جميعاً أن نفعل ذلك»

«فلو، اسكتي. كيف لك أن تكوني بهذه الفظاظة؟ إن أبي مريض، وكل ما تقلقين بشأنه هو أنك لا تفعلين ما تريدين»

أدارت كل منهما ظهرها للأخرى، ولم تتبادلا كلمة واحدة بعد هذا.

بدا «رالف مارتن» في اليوم التالي وقد استعاد صحته تماماً. فاستقبلت «فلافيا» والأولاد الثلاثة عودته الى الحياة الطبيعية ولم يفكروا في الأمر مرة ثانية أما «هيلين» و«شارلوت» فما زال يساورهما بعض القلق.

وبعد مضي ثلاثة أيام رأت «شارلوت» زورقاً آخر بحرياً ينطلق عبر الخليج أثارت رؤيته فضولها من جديد وقررت أن تذهب لمشاهدته.

ولأن الأولاد كانوا يستخدمون الزورق في ذلك اليوم ركبت «الأوتوبيس» ونزلت قرب طريق ينحدر بشدة نحو الشاطئ.

كان الشاطئ خالياً. جلست «شارلوت» تستظل تحت النخيل، وقد أمضت ساعتها بطولها وهي تحدق في المركب الأبيض الضخم الذي بدا مهجوراً. لم يكن الزورق مربوطاً بالسلم المتدلي من جانب اليخت مما أوحى بأن الأسرة «موتيشفالكر» وضيوفها خرجوا في جولة استكشافية.

خلعت «شارلوت» ثوبها الذي كانت ترتديه فوق رداء البحر الأزرق الباهت وراحت تسبح في بطء. الأمر لم يكن لديها نية للاقتراب من اليخت. ولكن بعد أن سبحت في الماء ولم تظهر أية بادرة للحياة فوق سطح اليخت لم تستطع المقاومة وظلت حتى أمسكت بالسلم وبعد لحظات كانت قد وصلت الى قمته.

وبينما هي واقفة على السلم في تردد سمعت صوتاً يقول:

«مرحباً.. من أنت؟»

كادت «شارلوت» تسقط من السلم فزعاً، فحتى لو كان لها حق الدخول الى هذا المكان لكان الصوت قد أفزعها. لقد كانت واثقة تماماً من أن أحداً لم يكن في

اليخت.

تلوها مشفقة قائلاً:

«تناولي هذه. رأيتك من الشرق وأنت تشربين. كان منظرك سارّاً للغاية. هذا اليخت أصبح طوفاً لنجاة الغرقى. تعالي إلى السطح حيث الشمس وسأعد لك شيئاً لتشربيه. اسمي جون وأنت؟»

«ش... شارلوت»

«شارلوت؟ أنت شارلوت مارتن؟»

أومأت برأسها تراجع الشاب خطوة إلى الوراء يرمقها من أسفل إلى أعلى بابتسامة قائلاً:

«إذن أنت الأخت الصغرى لفلافيا»

لم تستسغ شارلوت الطريقة التي كان يفحصها بها فلفت المنشفة حول نفسها مسرورة لكونها غطتها حتى ركبتيها. ورغم أن ليام امتدحها بالطريقة نفسها في الجزيرة لكنها لم تحس كالآن بمثل هذا الشعور من عدم الارتياح والنفور مع أنه كان وسيماً للغاية.

سألته في عبوس:

«هلا بمساعدتك؟»

«أعطاني ليام صورة عنك على اعتبار أنك جزء خاص هناك من الطريقة التي تحدث بها عنك. أنك في العاشرة من عمرك تقريباً. حقاً سأروي له هذه الدعابة في المستقبل. وبالنظر إلى سحنته توقعت أنه يخفي شيئاً عندما أثار هذه الضجة حول اسمي. أعتقد أنني أنه يلعب الصيد الأخرق ويلزم الصمت تماماً بشأنه»

أخذت كراهية شارلوت له تتصاعد مع كل كلمة.

«هلا أنهي بقولك وبالنظر إلى سحنته»

«حسناً لا أعتقد تصوّره من فتيان الكشافة الذين لم يبلغوا الحلم قليلاً. أما أنت فأكثر ذكاء»

«يا لك من فطن كان فعلاً لا بد من فلافيا أن تعجب بواحد مثلك»

«للأسف لم أقصد الإهانة. فأنا أستلطف أختك. ولكن ما شئت أنا أستلطفك أنت أكثر! تعالي لتشربي شيئاً ونصبح صديقين»



«كلا. شكراً. جئت لأرى ليام. أنا لم يكن موجوداً على انتظره»

«بوسعك أن تنتظري نصف ساعة أليس كذلك؟ أنهم في نزهة راحة بعد الغداء ولا يهم. فالأمر ليس بهذه الأهمية»

«كلا، لا تدعني؛ أنا واثق من أن ليام يود أن يراك. ر ثانيا أيضاً. ملاك!! إنها لا تعرفني»

«كلا، ولكنها دائماً تهتم بالتعرف إلى صديقات ليام... الأخريات. يجب أن تنتظري حتى تلتقي بها. ستحبان بعضكما بعضاً من النظرة الأولى»

ورغم أنه كان يبدو جاداً، كان لديها إحساس داخلي بأنه يقول هذا تهكماً. ومع أنها لم تأت أصلاً إلى اليخت لهذا الغرض، أحست أنها تود أن ترى ليام مرة أخرى.

«حسناً. سأنتظر»

صحبها إلى سطح اليخت ثم بادرها قائلاً:

«ماذا تشربين؟»

«شراب من فضلك»

ضغط على جرس بجواره ثم فتح صندوقاً بدا بداخله شيء كبكرة الأفلام.

«ما هذا؟»

تساءلت عندما انتقى إحداها ووضعها في جهاز به أرصدة دوارة.

«هل تسألين؟ هذا ؟ يا إلهي ألم تري من قبل جهاز تسجيل. هذا المكان بدائي أكثر مما أتصوّره. وماذا عن جهاز التلفزيون»

«هناك محطة للتلفزيون. ولكننا لا نملك جهازاً»

بدأ الجهاز يخرج صوت موسيقى. وظهر خادم صغير أسمر من دول أميركا اللاتينية فأمره جون بإحضار المشروبات.

جلست شارلوت على حافة أحد المقاعد آملة ألا تتلف ثيابها المبللة قماش المقعد الفخم. وظهر الخادم مرة ثانية وقد حمل المشروبات على صينية من الفضة. ابتسمت له شارلوت قائلة:

«شكراً لك»

وبعد لحظات انضمت إليها سيدة. كانت شقراء، دقيقة الجسم ترتدي رداء بحر

أحمر وصندلاً ملائماً مزيناً بأحجار حمراء. كان الجزء العلوي من وجهها قد غطته نظارة شمس ضخمة مما جعل شارلوت ترى أول ما ترى شفتيها وقد طلتهما بلون أحمر ثقيل.

«أوه، ها أنت يا جوني... من هذه؟»

«صديقة ليام. اسمها شارلوت. شارلوت، هذه جيني أمي.»

تفحصت شارلوت بينما رفعت جيني نظارتها ثم حاجبيها قائلة:

«صديقة ليام؟»

«تلك الفتاة الصغيرة الظريفة التي التقيتها عندما كان يتجول وحده.»

أطلقت أمه ضحكة مقتضبة قائلة:

«آه، تذكرت، أين تارا؟ هل عرفت أن عندنا ضيفة؟»

وقبل أن يجيبها صعد إلى السطح عدد آخر من الناس، وبعد أن عرّفهم جوني شارلوت أخذوا مثل أمه، يتضاحكون ويتهامسون، الأمر الذي جعل شارلوت تشعر بمزيد من عدم الارتياح. حاولت ألا يظهر هذا عليها، وإن تمنت أن يجيء ليام في هذه اللحظة. لم تكن تفهم لماذا يدعي الجميع كل هذا الاهتمام بها.

فجأة ظهرت امرأة أخرى، وأدركت شارلوت فوراً أن هذه هي تارا مونتيفالكو. وعلى خلاف الجميع الذين كانوا في ثياب السباحة، كانت ترتدي بنطالاً فضفاضة من حرير رقيق زاهي الألوان. كانت بشرتها سمراء، وكان شعرها أسود قصيراً ملتصقاً برأسها وكان لديها أطول أهداب رأتها شارلوت في حياتها.

«عزيزتي تارا، تعالي لتتعرفي بصديقة ليام. بدأت أفهم لماذا يقضي معظم الوقت وحده بعيداً عنا. شارلوت، هذه هي مضيفتنا الأميرة مونتيفالكو.»

أحست شارلوت أن الجميع يحبسون أنفاسهم وكان بوسعها أن تحس بالتوتر الذي يلف المكان.

قالت في تردد:

«كيف حالك؟ آمل ألا يكون لديك مانع لقدومي. جئت لأتحدث مع السيد هاملتون.»



كانت عيناها الواسعتان الداكنتان لا تكشفان عما بداخلها ثم قالت بصوت عميق جذاب:

«سأرسل شخصاً يبلغه بذلك. ولكن قبل كل شيء ألا تحبين تسريح شعرك، وارتداء قميص حتى تجف ثياب البحر فما من شيء يثير الإحساس بعدم الراحة أكثر من الجلوس في ثياب مبتلة. تعالي إلى غرفتي.»

كان جناح المضيفة بمثابة اكتشاف لشارلوت. كانت جدران الغرفة مغطاة بحرير أزرق مشرع بينما الأريكة والمقاعد مغطاة بحرير ليموني اللون.

وهناك ردهة تكسوها ألواح خشبية تقود إلى قسم النوم. دفعت أحد تلك الألواح لتكشف عن خزانة ملابس مليئة بالثياب. انتقت منها واحداً لا مثيل له فضفاضاً وبلون أصفر.

«من الأفضل أن تأخذي حماماً لن يستغرق منك هذا أكثر من خمس دقائق.»

قادتها عبر غرفة نوم وردية ملاصقة إلى حمام وملحق بها بلون وردي ناصع تكاد تكون كالمرآة ضخمة.

«عندما تكونين مستعدة تعالي إلى غرفة الجلوس.»

خلعت شارلوت ثيابها استعداداً لأخذ الحمام وهي تشعر بتحول من تطور الأحداث. كان هناك دوش في منزل أسرة مارتن ولكنه بدائي للغاية بالمقارنة مع الغرفة المصنوعة من الزجاج والمعدن ونظامها المعقد لتدفقة المياه.

وعندما عادت إلى غرفة النوم كان الباب مفتوحاً قليلاً كذلك كان الباب الواقع في نهاية الردهة. فسمعت تارا تتحدث مع شخص ما، ويبدو في صوته الضيق وهي تقول:

«كلامك مضحك وغير معقول. فأي انسان يستطيع أن يرى أنها مجرد طفلة.»

جاء صوت جيني مجيباً:

«طفلة جذابة جداً يا عزيزتي...»

«نعم، ستكون رائعة بعد سنوات قليلة. ولكنها الآن ساذجة بالدرجة التي لا تجذب ليام.»

«هل أنت واثقة من ذلك؟ أنا لا أريد أن أقلقك يا عزيزتي ولكن يجب أن تعترفي أن أمره أصبح محيراً في الآونة الأخيرة. أين يذهب بمفرده؟ انه ضيفك الخاص، لو

«كنت سأكون لأحسست بحرج في كبريائي».

«نعم أتوقع أن تكوني كذلك. ولكنك أكبر مني سناً بكثير. وعندما تبلغ المرأة سنك تصبح عادة أكثر عصبية وحاجة للشفقة».

عند هذا الحد أدركت شارلوت أن ليس من حقها أن تستمع إلى هذا الحوار، فأغلقت الباب. ولكن ما سمعته علق في ذهنه. كان كافياً ليجعلها تدرك أن هؤلاء الناس برغم أنهم يبدون مهذبين غير قادرين على الأذى لكنهم في حقيقة الأمر كالأسماك البحرية المتوحشة.

لم تكن قد انتهت من تمشيط شعرها عندما عادت تارا إلى غرفة النوم وقالت:

«يبدو أن ليام أخذ الزورق وذهب إلى مكان ما. لكنه قد يعود سريعاً. تعالي وتناولي معي وأطلعيني على كل شيء عن نفسك».

تبعتها شارلوت إلى غرفة الاستقبال حيث جلست تارا على الأريكة في أناقة، وأخرجت علبة السكاير قائلة:

«أخبريني! كم عمرك؟»

«أنا في الثامنة عشرة من عمري. السابعة عشرة تقريباً».

أجابت شارلوت وهي تجلس بارتباك على حافة المقعد.

سألتها تارا أسئلة عدة. لم أتحضر الطعام الشهي على صينية من الفضة كان بوسعها أن تلتهم الشطائر في قضمة واحدة لكنها نجحت في أن تستبقيها لعدة قضمات. كانت تخشى أن تسقط أو تسكب شيئاً. كما أن إحساسها بأن المرأة تراقبها جعلها أكثر عصبية.

«هل هناك رسالة أبلغها لليام إذا ذهبت قبل أن يعود؟»

«أوه. كلا. شكراً. جئت فقط لأودعه لأنه قال أنكم سترحلون قريباً».

«نعم، سنرحل غداً. هل ستفتقدينه؟»

«نعم. إنه يبدو لطيفاً».

ردت شارلوت في حذر بينما أطلقت تارا ضحكة خفيفة وسألت في تهكم:

«هل تظنين كذلك؟»

«ألا ترين أنت كذلك؟»



«ذلك يعتمد على ما تعنين بكلمة لطيف. فهي تعني في لغتي شخص مسالم ولكنه ممل. فكيف تفهمين أنت هذه الكلمة؟»

«أنه ودود وطيب في رأيي».

ضحكت تارا مرة أخرى قائلة:

«أنت فتاة بريئة. فمعظم الفتيات اللواتي في سنك يجهلن الكثير عن الرجال إلى أن يتعرفن على ذلك النمط الذي يعرف بالنوع الخطير».

«ماذا تقصدين بالنوع الخطير؟»

«النوع المتخصص في الإيقاع. ليام ليس رجلاً لطيفاً يا عزيزتي بل إنه رجل خطر. وسمعته الفاضحة هي التي جعلته جذاباً إلى هذا الحد. وأنا نفسي أنتمي إلى هذا النمط لكن الفرق الوحيد بيننا هو أنه كان علي أن أناضل من أجل الحصول على ما أريد. أما ليام فقد ورث أمواله. لقد كان حراً دائماً».

نهضت السيدة ونظرت من فتحة في جانب اليخت بعد أن سمعت هدير محرك.

«ها قد عاد الزورق. سيكون معنا بعد دقائق. ماذا تنوين أن تفعلي بحياتك؟»

«لا أعرف. لم أفكر في الأمر بعد».

«الآن يجب أن تفكري. أنت قد لا تدركين أنك في موقع ممتاز هنا. فعندما كنت في السابعة عشرة من عمري كنت حبيسة مدينة صغيرة في انكلترا. كان علي أن أثابر لأخرج للبحث عن فرصي. أما أنت فبوسعك أن تنتظري حتى تأتيك فرصتك وأنت في مكانك ـ ربما فوق يخت مثل هذا».

لم تقل شارلوت شيئاً في البداية فتأثرت بسحر تارا، وأحست بالارتياح إزاء صداقتها غير المتوقعة. ولكن كان هناك شيء خطر في ذهن تارا. وبينما هي تسمع صوت اقتراب الزورق سألت شارلوت نفسها ما إذا كان ليام أيضاً سيبدو مختلفاً غير مناسب وسط هؤلاء القوم.

بعد مضي بضع دقائق دخل ليام ولاحظ على الفور أن تارا لم تكن وحدها. لم يبدُ مسروراً لرؤية ضيفتها فسأل بفظاظة:

«ماذا تفعلين هنا؟»

أجابته تارا قائلة:

«وعادت لترافقه»

«أوه! شكراً»

تساءل وهو ينظر إلى شارلوت بطريقة جعلتها تحس وكأن تصرفها كان عادياً للغاية.

أحست بالدماء تصعد إلى وجهها وقد ارتبط لسانها.

«ربما من أجل أمر خاص، سأترككما»

قالت تارا تلك الكلمات وهي تتجه صوب الباب.

اتجه ليام نحوها ويده مخبأة على وسطها، أرجعها نحو الأريكة، جلسا سوية متلاصقين، ثم جذب نفساً من سيكارتها.

للحظة أخذا يتبادلان النظر في ابتسام وألفة خاصة، الأمر الذي جعل شارلوت أكثر توتراً.

«أليس هذا الثوب الأصفر ملكك يا تارا؟»

تساءل ليام بعد أن لاحظ الثوب الزعفراني. ربما لم يكن يقصد ولكنه جعل شارلوت تحس أنه من الوقاحة أن ترتدي ثوباً صمم لواحدة أكثر منها أناقة ورشاقة.

بعد أن قطعت شارلوت المسافة بين الشاطئ واليخت سباحة، ولم يكن ممكناً أن تبقى في ثياب مبتلة.

قالت شارلوت قائلة:

«يجب أن أذهب الآن. لقد جئت لأودعك وأشكرك على أنك لم تقل عن الجزيرة... وأية جزيرة»

قالت تارا متسائلة:

«عندما التقيت بشارلوت كانت تعمل على ملكية خاصة مهجورة»

«ذكّرته شارلوت قائلة:

«وأنت أيضاً»

تجاهل كلماتها وبادرها متسائلاً:

«أين ملابسك لأعيدك إلى المنزل؟»

«لا تقلق سأعود بالطريقة التي أتيت بها»



ضحكت تارا وتبعتها إلى غرفة النوم، وهناك بادرتها قائلة:

«لعل الشيء الآن إمكانية بقائك وحدك مع ليام بعد ما قلته لك عندما لا تلتقي فأنت في مأمن معه. ليام قد يكون فاسقاً ولكن لديه القدرة على التمييز ورغم أنك جذابة جداً لكنني لا أظن أنك بلغت مواصفاته بعد»

تساءلت ما سيكون رد فعل تارا لو قالت لها إنه لا يملك القدرة على التمييز كما تظنين. عانقني وقال أختي أيضاً. ولكن ربما يكون العناق أمراً في بساطة الابتسامة بالنسبة إلى قوم مثل هؤلاء، انغمسوا في الملذات.

بعد أن انتهت شارلوت من ارتداء ثيابها قالت:

«شكراً لك على الثياب أرجوك لا تزعجي نفسك بمصاحبتي إلى اليخت وداعاً»

أفسحت لها تارا الطريق قائلة:

«وداعاً يا شارلوت»

وجدت ليام واقفاً بجوار السلم المعلق إلى جانب اليخت فقالت له:

«أنا لست في حاجة إلى من يوصلني، شكراً لك. وعلى العموم تركت ملابسي على الشاطئ. فوداعاً وآمل أن تستمتعوا ببقية رحلتكم في البحر»

ابتسمت له ابتسامة مقتضبة ومرت أمامه لتهبط السلم. ولكن لدهشتها وجدت الزورق راسياً بطريقة تحول دون غطسها في الماء من فوق السلم بل كان عليها أن تمر أولاً بالزورق عند تأرجحه بعد أن أمسكته في عجلة. وجذبت من يدها من الخلف ودفعها نحو المقعد الأمامي برغم مقاومتها.

لم تكن لتستسلم إلى هذه المعاملة لو لم تلحظ جون ورالف وآخرين يراقبون رحيلها.

وعلى مقربة من الشاطئ، قال ليام:

«والآن اذهبي واجلبي ملابسك ولا تحاولي الفرار فأنا أريد أن أتحدث معك يا شارلوت الصغيرة»

وفي ثوان أحضرت ثوبها وحذاءها وألقت بهما إلى سطح الزورق ثم ألقت بنفسها من ورائها حتى جعلت الزورق يتأرجح أكثر من المرة السابقة. كان ميسوراً أن ينقلب ولكن بدلاً من ذلك ارتطم مرفقها به فانفجر ليام ضاحكاً. وعندما وصلا إلى نقطة بعيدة عن طرف الأرض أوقف المحرك وبالمثل

وفي نبرة صوته بقايا مرح وقد استدار نحوها ماداً ذراعه على ظهر المقعد.

«والآن، هلا أنت غاضبة؟»

«أنا لا أحب أن يمسك بي أحد... وكأني كيس من الفول.»

«أنا آسف، ولكن تلك كانت الطريقة الوحيدة أمامي لإيقافك. لكنك كنت غاضبة قبل ذلك.»

«كلا، لم أكن غاضبة. أنا فقط لا أحب الانتظار. انتظرت قرابة نصف الساعة.»

«أليس من الغريب أن تنتظري شخصاً ما نصف ساعة ثم أن تهربي بالفرار لحظة ظهوره؟»

«حسناً، ظننت أنك نسيت وجودي.»

«ربما أكون نسيت.»

«لا أعرف ولكن من المؤكد أن هذا ما بدا عليك.»

«حسناً، هذا كل ما في الأمر. كيف كان لقاؤك مع تارا؟»

«كانت ودودة جداً معي.»

«هل التقيت بأي من الآخرين؟»

«نعم، أعتقد أنهم يحبونني، خاصة جون بحكاياته السخيفة والعقد الذي يعلقه حول رقبته في حالته.»

ضحك قائلاً:

«لو كنت تعيشين في انكلترا لكان الحراك قد زينوا أنفسهم مثله. إن هذا من الأمور السائدة.»

«كلا من المستحيل. فالحلي للفتيات وليست للرجال.»

«أوافقك، ولكن لا تقلقي.»

مد يده إليها لمس خصلة مبللة من الشعر على كتفها وقال:

«عندما أنظر إليك أحس أنني عتيق من جميع النواحي.»

«أنت لست متقدماً في السن. كم عمرك؟»

«عمري بالسنوات اثنان وثلاثون سنة ولكن بمقدار ما بذلت من حياتي فأنا في حوالي الخمسين من عمري.»

«لا تبدو في نظري مستهلكاً بل أن جسدك ينم أكثر قوة من جون.»



أحست فجأة أن غضبها تلاشى وعاودها ذلك الإحساس الذي أحسته عندما كانا يتبادلان الحديث وهما يتناولان غداءهما سوية.

«هل جئت إلى منزلنا ذلك اليوم لأنه لم يكن هدفك أن تبلغ والدي بأمر الجزيرة؟»

لم يجبها على الفور بل جلس يداعب شعرها في استرخاء وقد اتجهت عيناه صوب المنطقة الخضراء النائية من الجزيرة.

«أعتقد أنه السبب نفسه الذي جئت من أجله إلى اليخت اليوم. فضول للتعرف على طريقة معيشة النصف الآخر.»

«أنا لم أدخل من قبل يختاً فخماً، ولم أقابل أشخاصاً مشهورين، ولكنني لا أرى سبباً وراء فضولك للتعرف على حياتنا. فنحن مثل أية أسرة عادية ليس فينا ما يثير الاهتمام.»

«أي شيء غير معتاد مثير للاهتمام. وأنا لم أنتم يوماً إلى أسرة عادية.»

«أفكر حقاً في الإقامة هنا.»

«ما الذي يجعلك تفكرين في هذا؟»

«أنت. قلت هذا لأمي.»

«هل قلت هذا؟ ربما فقط لأجد موضوعاً للحديث.»

« تارا تقول عنك أنك غني جداً. أين ستذهب في باقي الرحلة؟»

لم يجب على سؤالها بل تساءل:

«كيف وردت حالتي الاقتصادية في الحوار؟»

وحتى تحول دون سؤاله إياها عن سائر ما قالته تارا عنه بادرته قائلة:

«كانت تتحدث عنك... إنها جميلة جداً على أية حال... هل هي عشيقتك؟»

وقبل أن تنتهي من سؤالها فزعت لتهورها، وأعدت نفسها لصدمة قاسية تستحقها. ولكنه قال بثبات:

«نعم.»

نظرت إليه لكنها لم تجد قسمات وجهه قد تجمدت، وظلت عيناه الزرقاوان هادئتين دون تغير.

«أنا... آسفة... ما كان يجب أن أسألك.»

اعتدل في جلسته واستدار نحو عجلة القيادة قائلاً:

«الأمر ليس سراً».

وعندما أصبح الزورق مواجهاً لرفا مرفأ، أمسكه به ومدّ إليها يده الثانية حتى تصل إلى الشاطئ.

«وداعاً يا "ليام"».

في اليوم التالي رأت اليخت يتخطى "مورتيسيا" متجهاً صوب الشمال. وبينما هي تراقبه يختفي عن الأنظار أحست خليطاً من الراحة والقلق. فمن ناحية كانت سعيدة برحيله، ولكن في الأيام التالية بدا لها نمط الحياة التي كانت راضية عنه من قبل مملاً بشكل باعث على اليأس، روتين لا نهاية له لا يتبدل بين الأكل والنوم وملء الفراغ بشكل قد يستمر لسنوات قبل أن يحدث أمر لكسر هذه الرتابة.

وبرغم أن هذا الإحساس بالركود تلاشى تدريجياً، لكن ذكرى "ليام" لم تتلاش. كانت تعلم أنه من الحماقة أن تعيش أحلام يقظة مع رجل لن تلقاه ثانية، ويكبرها بسنوات. مع ذلك لم يكن بوسعها أن تتخلص من التأثير الذي تركه عليها، وبعد فترة نسيت تماماً زيارتها لليخت وأصبحت لا تتذكر الآن سوى لقائها الأول. ثم بدأت تتذكره ليس كما كان، ولكن كما كان يحلو لها أن يكون، وبدأت تخلق قصصاً خيالية تقوم فيها هي و"ليام"، الشاب البالغ من العمر عشرين عاماً بمغامرات حول العالم.

مرّ شهران قبل أن تتمكن "شارلوت" من أن تتسلل مرة أخرى في إحدى رحلاتها السرية إلى جزيرة "سوليفان".

وعندما وصلت إلى المنزل، لم تصدق عينيها. كانت النباتات الفارعة قد جزت، والمنطقة كلها خالية من النباتات الأرضية. وفي الطرف البعيد من تلك الرقعة المشذبة رأت عدداً من الأشجار المقطوعة.

وقفت "شارلوت" فترة طويلة من الوقت متجمدة فاغرة فاها دهشة. ثم تقدمت نحو المنزل وهي مشدوهة. كانت هناك مفاجأة أخرى تنتظرها. فالباب الذي دبّ فيه العفن، والذي كان دائماً مفتوحاً بعد أن فقد أحد مفاصله، استبدل بباب آخر، باب آخر مغلق.

وبحذر شديد، فتحته، فتحرك إلى الخلف على مفاصل جديدة لا تخرج صريراً. وظلت واقفة في مكانها لحظات تصغي. كان المنزل ساكناً كالعادة. دخلت ثم أغلقت



الباب خلفها في هدوء.

كان أول ما لاحظت في البهو هو اختفاء القرميد والنباتات المعترضة من الدرج. وفي المطبخ اكتشفت وجود موقد صغير وأشياء أخرى تكفي احتياجات فرد أو اثنين.

وفي الطابق العلوي، وجدت أن غرفتين من غرف النوم أغلقتا، وضعت عينيها على ثقب المفتاح ولكنها لم تر شيئاً.

كان يبدو وكأن المنزل يقطنه شخصان على الأقل. من هما؟ وأين هما في هذه اللحظة؟

وقبل أن تعود إلى الشاطئ، بحثت في كل موقع في الجزيرة. لكنها لم تجد أي شيء آخر قد تغير. كلا. كيف تستطيع أن تعود إلى المنزل دون أن تجد إجابة تلك الأسئلة؟ إذا كانت تود أن تحل هذا الغموض، فعليها أن تنتظر مكانها، لترى بنفسها هؤلاء المتطفلين.

ظلت قابعة على الشاطئ، بعين يقظة طوال ساعتين. وفي الثالثة من بعد الظهر أحست عينيها تؤلمانها من كثرة النظر صوب المياه اللامعة. أغلقت عينيها أمام هذا الوهج، وأطلقت زفرة تحولت فيما بعد إلى تثاؤب. إن الجلوس ساكنة أمر متعب للغاية، وإذا لم تحذر قد تستسلم إلى النعاس.

أفاقت على شيء يبلل ساقيها.

«كفّي عن هذا يا "كيتي"».

همهمت وهي ناعسة.

ثم أدركت فجأة أنها ليست راقدة على الشاطئ، بجوار مرفئها، وأن من يمسها الآن ليس أنفها الصغير. نزع قلبها بعنف. لم تفتح عينيها.

«أتصور أنني قلت لك من قبل ألا تجيئي إلى هنا وحدك».

جاء صوت "ليام هاملتون" صارماً.

«ليام!».

طرفت عيناها وهي تنظر وجهه المنحني الداكن ـ ذلك الوجه الذي توقعت ألا تراه ثانية ـ واجتاحتها موجة من الارتياح والغبطة.

«ليام... سيساعدنا "ليام". سيعرف ماذا يجب أن تفعل... كيف تتخلص من

هؤلاء المتطفلين على جزيرتها.

«أوه... ليام، لقد عدت! أنت الشخص الذي أحتاج إليه. حدث شيء مروع ستساعدني، أليس كذلك؟ يجب أن تساعدني».

«بالطبع سأفعل... إذا استطعت ما هي المشكلة؟ ما هي الأعمال الشيطانية؟ ماذا تعنين أنت و... فلافيا... عند الزواج»

«لا شيء... لم تفعل شيئاً. ليست المشكلة من هذا النوع. أوه... ليام، أنا سعيدة لرؤيتك. متى وصلت؟ هل عرفت؟ وأيضاً هل ستقيم هنا في النهاية؟ هل أنت وحدك؟ أم أن الآخرين معك أيضاً؟ أين...»

«لو أعطيتني نصف فرصة، لقلت لك كل شيء. أنا سعيد لأنك سررت لرؤيتي. تصورت أن أحداً لن يحتفي بي بهذا الشكل».

«ماذا جعلك تتصور هذا؟ قل من أحد جدير بالاحتفاء مثلك. أنه سحر... معجزة... أنه شيء رائع».

وحتى تريه ما تعنيه عودته بالنسبة اليها ألقت بذراعيها حول عنقه واحتضنته.

ضحك وبادلها العناق. للحظات أحست بسعادة لا توصف. لم يعطف نحاها جانباً وفي تلك اللحظة خبت قلقها وأدركت أنه ليس عليها أن تثق به. افتقدته منذ زمن طويل... أو هكذا تصورت لحظة استيقاظها... بل أنه رجل لم تقع عليه عيناها منذ شهرين.

«أنا آسف... كنت نصف نائمة... أنا لم أقصد...»

همهمت في خجل وهي تنظر لتبتعد عنه.

«لا داعي للاعتذار فأنا أحب الاستقبال الحار. والآن، قولي لي ما الأمر؟ ما هي تلك المأساة المفجعة يا صغيرتي... شارلوت؟».

«ليس الأمر مزاحاً. انه أمر خطير للغاية. تعال لترى بنفسك».

وعندما بلغا مشارف الأرض المشرعة، استدارت نحوه وهي تتوقع أن تراه مندهشاً كما كانت هي منذ قليل.

ولكن ليام... قال في هدوء:

«يا له من تغيير لما كان عليه المكان منذ المرة الأخيرة التي كنا فيها سوياً».



«أنت لا تفهم. لم أفعل أنا كل هذا. فأنا لم أحضر منذ ذلك اليوم. لقد فعل ذلك شخص ما. شخص ما يعيش هنا الآن».

«شخص ما؟ ألا تعرفين من؟»

«لم أرها بعد. أعتقد أنها أنثى».

«لا تقولي هذا يا... شارلوت... بل أنا فقط التي أعيش هنا. تصورت أنك عرفت ذلك. فأنا أقيم هنا منذ شهرين وأنوي أن أقيم هنا دائماً».

حدقت فيه غير مصدقة، وأخيراً استعادت نفسها بالقدر الكافي لتقول في رعب:

«لا يمكنك ذلك... لا يمكنك ذلك».

«ولماذا؟ أوه بسبب الأرواح؟ لم تشكل لي أية مشكلة. وإذا لم تعترضي على بقائي هنا لا أتصور أن أحداً آخر سيفعل ذلك».

أخذت نفساً عميقاً ثم انفجرت قائلة:

«أنا أعترض. لا يمكنك أن تستحوذ عليها فهذه جزيرتي أنا. سأبنيها. لقد قلت لك ذلك. إن جزيرة... سيلفان... هي جزيرتي».

«كان هذا أملاً كاذباً يا... شارلوت. أنا أعرف كيف تشعرين بالنسبة الى هذا المكان. ولكن يجب أن تدركي أنه ليس بوسعك أن تبتاعيه. يمكنني أن أفهم غضبك عندما ظننت أن أغراباً نزحوا الى الجزيرة. ولكن أنا لن أمنعك من المجيء».

«بالطبع! أنا لن أحضر الى هنا ثانية. أنت ستخربها... ستفسدها. أنا أحبها كما هي».

«ليس هذا هو ما قالته المرة الماضية. كانت لك خطط عظيمة بالنسبة الى هذه الجزيرة».

«ما كان يجب أن أكشف لك عن خططي، فلولا ذلك ما فكرت في أن تعيش هنا».

«كلا... ربما ما كنت سأفكر في ذلك. ولكن ما فائدة خطط لا يمكنك تحقيقها يا شارلوت؟ عندما تفكرين في الأمر ستكتشفين أنك لم تخسري شيئاً».

«من أين لك أن تعلم أنني لن أنجح في تنفيذ خططي؟».

راودتها فكرة جعلتها ترفع ذقنها في تحد قائلة:

- ولا تكن واثقاً من أن بوسعك أن تغلق شركتك. فليس من حقك أن تضع يدك على الجزيرة هكذا. يجب أن تشتريها وربما لن يوافق مالكها على بيعها لك.

ألقى عليها نظرة جعلتها تحقد لحظة أنها لم تفقد كل الأمل بعد، ثم قال بهدوء:

- أنا بالفعل أملك سند ملكية الجزيرة. لذا كنت تشكين في هذا تعالي لأريك إياه.

- حقود!

أطلقت شارلوت صرخة لا إرادية.

ثم استدارت وركضت ولكنه هذه المرة لم يتعقبها وعندما وصلت إلى الشاطئ، ألقت بنفسها في البحيرة.



٤ - أيام كنت غراً طائشاً صغيراً في الرأي والحكم

شكسبير - أنطونيو وكليوباترا

وقفت شارلوت في اضطراب عاطفي كبير بعد عودة أيام إلى الجزيرة، ولم يكن هناك من تبوح له بحزنها، وكان عليها أن تتحمله وحدها، ولم يكن بوسعها أن تتحمل سخرية فلافيا عند النوم بينما تحترق شعورها الأليم بالضياع.

لم يكن بعودته قد حرمها فقط من الجزيرة، بل شق الصورة التي رسمتها عنه بعد أن استولى على مكان لا يبعد غير أميال قليلة عن الشاطئ، وكان يخصها بكل سند قانوني.

لم تكن تزور الجزيرة للمرة الثالثة عادة قبل أن تمضي عدة أسابيع، غير أن أباها بعد عودتها الصريحة القادمة من الجزيرة بعشرة أيام أشار وهو يتناول طعام العشاء قائلاً:

- يمكنك أن تأخذي القارب غداً يا شارلوت إذا أردت ذلك.

وسألته:

- حقاً حسناً.

كانت قبل ذلك بوقت غير بعيد تشعر بالبهجة إذا ما سنحت مثل تلك الفرصة... ولكن هذا العرض الآن زاد من شعورها بالإحباط لأنها كانت قد صممت على ألا تطأ قدمها أرض الجزيرة ثانية طالما هو هناك.

غير أن الأمر اختلف الآن بعد أن واتتها الفرصة وداخلها ما بين الخشية والانتظار الشعور بإمكان الرجوع عن مشروعها.

واستسلمت في النهاية لشعور قوي يغريها بأن تذهب لتستطلع نوايا ليام فهي لا تريد أن تراه بل تريد أن تعرف ما ينوي أن يفعله بجزيرتها.

وأحست بالألم عندما فكرت أنها ستضطر أن تدخل الجزيرة عن طريق القناة التي لم يجرؤ أحد سواها على أن يجتازها لسنوات طويلة. وتذكرت كيف اقتربت بعصبية من الشاطئ، في أول مرة، وكيف سارعت عند الشجيرات الصغيرة.

وعندما بلغت المنزل لم تجد أي تغييرات واضحة منذ آخر مرة كانت هناك. ولكنها عندما اقتربت من الباب الأمامي وجدته قد ترك مفتوحاً على مصراعيه. وسمعت صوت منشار... ووقفت في الردهة تحاول أن تتعرف على مصدر الصوت. بينما انطلق قط في مقابل لها من غرفة الجلوس يتشمم حولها ويحك جسمه في ساقيها البنيتين العاريتين.

وانحنت لتداعب القط قائلة:

«بسبس..»

كان القط نحيلاً للغاية ولم تكن فروته في حالة طيبة وربما كان حيوان ضال يعاني من نقص التغذية. لكنه لم يكن عصبياً أو نافراً، وربتت عليه بيدها فأنس لها في اطمئنان وتلذذ.

وتوقف صوت المنشار وسمعت وقع أقدام وظهر ليام في أعلى السلم فتوقف لحظة وارتفع حاجباه، ثم هبط إلى الردهة قائلاً:

«أهلاً وسهلاً... كيف حالك؟»

واحمر وجهها، وقالت في شيء من الخجل:

«صباح الخير»

«ما كنت أتوقع أن أراك قبل أسبوع أو أسبوعين... وظننت أنك لن تستطيعي الحضور إلا مرة في الشهر»

وعلقت في شيء من القسوة:

«أعتقد أنك لم تكن تنتظر أن تراني بالمرة»

«هل بالك لأنك كنت مضطربة في المرة الماضية؟ كان ذلك أمراً طبيعياً، وكنت أعرف أنك ستهدئين وتقتنعين عندما تجدين الوقت لتستعرضي الأمر من جديد»



وقبل أن تفتح فمها لتدحض هذا الكلام أضاف:

«كنت على وشك النزول لآخذ كأساً من الشراب. ماذا تشربين؟ كوكاكولا أم قهوة؟»

«لا أريد شيئاً، شكراً»

«لا؟ حسناً تعالي معاً إلى المطبخ وتري هنا يا أوليفر»

وأشار إلى القط الذي جرى أمامها على الفور اتجاه المطبخ.

وقال ليام وهو يفتح علبة الشراب:

«من حسن الحظ أنك جئت اليوم إذ كنت بالأمس في المدينة وتركت لك ملاحظة على الباب»

وتطلعت شارلوت إلى أوليفر وقالت:

«من أين حصلت على هذا القط؟»

«الحقيقة هي أول مرة ذهبت فيها إلى المدينة وكان من الواضح أنه ليس ملكاً لأحد وقد أحضرته ليؤنسني وسميته أوليفر لأنه كان هزيلاً أعجف، ولكنه الآن أفضل حالاً. أمازلت مصرة على ألا تشربي شيئاً؟»

«لا... شكراً»

«إذن فلنخرج إلى الفناء الطلق... وهناك بعض الكراسي المريحة في فناء البيت»

ولاحظت شارلوت أنه قام بإخلاء مساحة كبيرة من الشجيرات والأعشاب التي كانت تنمو وراء المنزل منذ زيارتها السابقة. وكان هناك كرسيان من الألمنيوم، ومنضدة تحت شجرة من أشجار الياسمين الهندي العطرة، وسألته شارلوت بعد أن جلسا:

«هل يعرف أهل القرية أنك تعيش هنا؟ وهل استخدمت أحدهم في إصلاح المنزل؟»

ووضع كأسه على المنضدة، وهز رأسه قائلاً:

«إنني أعتمد على نفسي في الوقت الحاضر، وعندما يصبح المكان جاهزاً للسكن أحتاج إلى طاه وبستاني. ولكنني أفضل الاعتماد على نفسي في هذه المرحلة.»

وابتسم ثم استطرد يقول:

«هل تظنين أنني لا أستطيع العيش بدون شمو؟ إن إعداد الطعام أو تنظيم المسكن من الأمور التي لا تحتاج إلى مهارة كبيرة».

«تستطيع أن تحصل لأسابيع قليلة. ولكن الأمر سوف يحتاج إلى شهور لتنجز كل شيء بنفسك».

«أظن أنه يحتاج إلى حوالي ستة شهور شرط أن يتم تركيب المرك الكهربائي في وقت قريب».

«ولكن حتى لو توفرت الكهرباء لا تستطيع أن تعيش هنا وحدك لعدة شهور».

«إنك لا تقدرينني حق قدري يا عزيزتي. فمن المعروف عني أنني أتم قراءة كتاب بين حين وآخر ولا تظني أنني محروم من المصادر».

«إنك لم تتعود هذا اللون من الحياة.. وبرغم أننا اعتدناه فإننا نشعر بالضيق في بعض الأحيان».

وعلق ساخراً:

«إنك شابة وطبيعي أن تشعري بالقلق. أما أنا فقد استمتعت بالحياة وقت أن كانت مدينة بهيجة».

وقالت في أسى:

«أعتقد أن بك جنوناً. إنني أعرف تماماً ما سوف يحدث. سوف تدخل تعديلات على المنزل وسوف تشيء إليه حتى تضيق به وتبيعه. وعند ذلك سوف ترحل وتجدد القلق».

وضحك وقال:

«لا أظن أنني سأعاني من الضيق طالما أنك قريبة مني يا شارلوت».

وحدقت في دهشة قائلة:

«ولكنني لن أكون قريبة منك».

«حقاً أنها بعيدة».

واحمرت خجلاً وقالت:

«حقاً لأنني نسيت شيئاً هناك».

«صحيح».



على الأقل. أظن ذلك. ولكن ربما أكون فقدته في مكان آخر. وربما هو كذلك! ربما ساعدتك في البحث عنه».

وأخذت تفكر فيما عساها أن تكون قد نسيته: كتاباً؟ أم نظارة شمسية؟ أم مظلة؟ وعلق قائلاً:

«أغري بالناس الذين تحمر وجوههم عندما يكذبون أن يقولوا الصدق. فأنا لا أعرف ولكنه حضرت خصيصاً لتسألي الأسئلة التي لم تسأليها في المرة السابقة».

وصمتت لحظة ثم قالت:

«أريد أن أعرف، هل اشتريت الجزيرة أم استأجرتها؟»

«لا هذا ولا ذاك.. لأنها كانت دائماً ملكي».

وقالت شارلوت قائلة:

«ملكك.. دائماً؟»

وكانت هناك علبة سيكار على المائدة ففتحها وأخذ واحدة منها وقال:

«ولدت هنا، وعاشت أمي هنا وأنت تعرفين القصة».

«ولكن لا يمكن أن تكون ابن سوليفان! فاسمك مختلف..»

«هو الأقارب الذين تبنوني اسمي، وخيل اليوم أن ذلك قد يمنع الفضيحة».

وأشعل السيكار ربما يدخن، وواصل يقول:

«إن أردت البرهان فسأريك شهادة ميلادي.. وقد سجل اسمي فيها: لوليام سوليفان ابن سين وروزالين سوليفان من جزيرة مالفيو».

«لا أكاد أصدق.. أقصد أنني أصدقك بالفعل.. ولكن الأمر يبدو غريباً للغاية».

ولمست بعض الورق ثم قالت:

«إذاً هذا هو الذي جعلك تبتسم عندما أول مرة رأيتك. كنت في غرفة الجلوس عندها..»

وتوقفت عن الكلام وهي تحاول تشغيلها ولكنه أكمل لها:

«عندما أطلق شون سوليفان النار على أبي. نعم إن هذه الرائحة صحيحة».

«ولكن، أن تعيش هنا بعد ما حدث! كيف يمكن لك أن تحتمل ذلك؟»

«بعد أكثر من عشرين سنة كما تعلمين، تنطفئ الذكريات... حتى المؤلم منها. وإذا بدا عليّ الاكتئاب في اليوم الأول فلأنني كنت شارداً في التفكير فيما إذا كان المكان يستحق الإصلاح؛ وكنت أتوقع أن أجده في حالة سيئة بالطبع. ولكن آثار التصدع تتجسد بشكل متزايد للشخص الذي يكون قد شاهد المبنى وهو في وضع معقول».

ورأت (شارلوت) أن إجابته كانت متناقضة فكيف يذكر المبنى في حالته الأولى بينما ينسى الذكرى السيئة لوفاة والديه، وواصل (ليام) يقول:

«وفي أي حال ليس لي خيار في الموضوع... هذا المكان هو آخر ما بقي لي من الميراث... أنا لست واسع الثراء كما يظنون ربما فأنني سأصبح في أزمة مالية بعد إصلاح المنزل».

وتجاهلت تعليقه قائلة:

«هل تعني أنك ستصبح مفلساً حقاً أم تعني أنك ستعاني من ضائقة مالية؟»

«لن أكون في ضائقة مالية فحسب... ولكن معدماً تماماً».

وعلقت (شارلوت):

«لو عرفت كيف يكون حال من يعاني المتاعب المالية لما سخرت بهذه الطريقة».

قالت ذلك وهي تتذكر قلق أمها وغضبها كلما جاءت مطالبات مالية تثقل كاهل ميزانية أسرتها المحدودة.

وعلق (ليام) في مرارة:

«إن الضيق والحزن لا يفيدان شيئاً».

«ولكن إذا أصبحت مفلساً حقاً، فكيف ستعيش؟»

«لن أموت طالما أن هناك سمكاً في البحر وأستطيع أن أزرع البطاطا والبازلاء في الحديقة... وإذا ساءت الأمور فسأحاول أن أعمل».

«ولكن هل سبق لك العمل؟»

«لم يكن ذلك ضرورياً».



«وأعتقد أنه من الصعوبة بمكان أن تجد فرصة هنا... سكان الجزيرة أنفسهم لا يجدون فرصاً كافية للعمل».

«أستطيع أن أزعم أنني سأجد فرصتي، فالشيطان يجد سبيلاً لأعوانه».

ونهض من كرسيه، وقال:

«سأشرب كأساً أخرى... هل تشربين الكوكاكولا الآن؟»

«حسناً... أشكرك».

ولاحظت وهو يعود من المطبخ بعد ذلك بدقائق قليلة وقد حمل كوبين أنه تغير منذ لقائهما الأول... فتخلص من تلك النظرة المتغطرسة في القسمات وبدت قوته واضحة تكشف عنها عضلات كتفيه. كان يبدو أكثر لياقة ولم تؤثر فيه آثار الأسابيع الستة الأخيرة من العمل الشاق كما كانت تؤثر فيه ليالي السهر السابقة وأيام البطالة.

وسألته بعد أن جلس:

«هل قلت للآخرين، أنك تنوي أن تعيش هنا؟»

«لا... ولكنني قلت وداعاً... وتركت السفينة في ميناء (فورت دي فرانس) ولم أصرح لهم بوجهتي».

«ألم تتساءل تلك الأميرة (مونتيفالكو)؟»

وأجاب ساخراً:

«فقط لأنها اعتادت التخلص من ضيوفها عندما تتضايق منهم، وليس حين ما يقررون هم الانصراف عنها».

وأخذت (شارلوت) تحتسي شراب الكوكا كولا لكنها لم تستطع أن تقاوم فضولها، فسألته:

«ألم تكن بينكما قصة حب؟ ولو إلى حد ما؟»

كان مستلقياً في كرسيه، وأجاب بدون أن يدير رأسه.

«لم يكن بيننا شيء من ذلك. فالحب يا (شارلوت) لا يحصل لكل شخص».

«ألا تريد أن تتزوج ويكون لك أطفال»
«لست حريصاً على ذلك بشكل خاص»
«ولكنك هكذا.. تصبح وحيداً في شيخوختك»
«عشت وحيداً معظم حياتي... وأفضل أن أعيش كذلك»
وحاول أن يغير الموضوع قائلاً:
«ما رأيك في النزول إلى البحر قبل الغداء؟ هل أحضرت معك شيئاً من الطعام؟ إذا لم تكوني قد فعلت فيسعدني أن أعطيك بعض المأكولات»
كانت شارلوت قد أحضرت معها طعامها العادي برغم أنها لم تكن تعتزم أن تأكله على الجزيرة ولكن بعد أن أسقط ليام القناع عن شخصيته زال شعورها نحوه بالعداوة وأصبحت تحس بدلاً من ذلك بالعطف والفضول. وقالت:
«نعم، أحضرت بعض الطعام، ولكن إذا كنت لم تعمل قبل الآن فكيف تستطيع أن تمارس الغطس وتنجز كل هذا العمل؟»
«ربما لم يسبق لي العمل بالمعنى المتعارف عليه، ولكنني لم أكن كسولاً. فقد مارست أشياء كثيرة»
«مثلاً؟»
«مثل التسلق والطيران والتزحلق على الثلج وغيرها.. لننزل إلى الماء»
كانت شارلوت قد أمضت شطراً كبيراً من حياتها في البحر فاكتشفت الغوص إلى مسافة ثلاثين قدماً. وكانت تستطيع البقاء تحت الماء إلى ما يقرب من ثمانين ثانية. وأدهشها أن وجدت ليام على المستوى نفسه فلم يكن هناك مكان في البحيرة تصل إليه إلا ويلحق بها وكلا منهما يرى شبح الآخر يلقي بظلاله على قاع البحر
ولم تستطع أن تكتم إعجابها بمهارته الفائقة التي لم تكن تتوقعها. وقالت وهما يتناولان الطعام:
«أستطيع أن أقرر الآن أن بوسعك أن تجد سبيلاً لكسب رزقك. فبإمكانك أن تكون صياد محار»
وابتسم ليام وقال:



«أتقصدين أن أبيع المحار إلى السياح»
«لا... لا... أقصد المحار أو الأصداف الصغيرة التي تحتوي اللآلئ. يمكنك أن تصطاد الأصداف النادرة التي يطلبها الهواة»
«كم تساوي المحارة النادرة إذا استطعت أن تعثري على واحدة؟»
«عثر أحدهم على محارة نادرة يطلق عليها اسم مجد البحار ويبحث بل يحالة عنه... إنها من أثمن أنواع المحار في العالم، وما وجد منها قبل الآن لا يزيد على خمس وعشرين واحدة»
وبدا عليه الاهتمام، وسألها:
«أين؟ في البحر الكاريبي؟»
«لا. المجد من سلالة ترجع إلى جزر الهند الشرقية... ولكن مع ذلك توجد محارات نادرة في هذه البلاد وحتى تلك التي تعتبر شبه نادرة مثل المحار الذي يطلق عليه اسم الملك فينوس والمحار القرمزي تعتبر ذات قيمة طائلة وخاصة إذا كانت سليمة»
«هل تجمعين المحار؟»
«لا أجمعها وهي حية... لا أحب أن أتسبب في قتل الحيوانات التي تعيش فيها. ولكنني أحتفظ بالمحارات الفارغة التي أجدها ولدي كميات كبيرة منها»
«أعتقد أنني كنت ممن يبحثون عن المحار وأنا صبي ولكنني لا أذكر ذلك الآن»
«بإمكانك أن تحصل على كتاب وتدرس كل شيء عن أنواع المحار وستجد فيه ما يشغلك خلال فترة الصباح. وربما أصبحت متخصصاً في هذا العلم»
ونظر إليها في صمت لعدة لحظات ثم قال:
«أتريدين أن تعلميني يا شارلوت؟»
وأجابت:
«إنه مجرد اقتراح... وإذا كنت تعتقد أنه اقتراح سخيف..»
«على الإطلاق، بل إنه لطيف جداً منك أن تبدي هذا الاهتمام... وربما أخذت بنصيحتك، وسأضعها موضع الاعتبار»
وعلت وجهها [illegible]

«هل أعود مرة أخرى؟»
«في أي وقت تريدين طالما أن أسرتك تعرف بذلك.»
«ولكن الجزيرة ستكون مكاناً مأموناً طالما أنك هناك.»
كانا يقفان إلى جانب القارب، وقد بلغ الماء خصرهما. وحملها إلى القارب وهو يقول:
«ربما يعتبر بعض الناس على أنها ليست مكاناً مأموناً بعد، وأعتقد أنني لست الرفيق المناسب لفتاة شابة بريئة.»
«لو كنت سيئاً حقاً لما همك أن يعرف أبواي. وفي أي حال فقد قابلتك أمسي وأحببتك.»
«لا أظن أنها كانت تفعل ذلك لو عرفت أنني قد عانقت ابنتها... وربما حدثتك أمك عن هذا.»
وقالت شارلوت في صراحة:
«نعم... وكانت غاضبة... إنها تكرهك.»
«وهذا يوضح أنها أكثر تعقلاً منك يا طفلتي.»
«كلا... لقد أحبت فلاديا جون، أما أنا فلم أثق به على الاطلاق.»
وأضافت في قوة:
«ثم انني لست طفلة.»
وأردف قائلاً:
«حسناً انك لست طفلة... ولكن من الأفضل أن يكون لك أصدقاء من سنك مثل جون.»
«جون مثال سيء للجيل الذي ينتمي إليه، ولكن من المؤكد أن هناك العديد من الشبان ذوي الخلق الطيب.»
«ليس في هذه المنطقة، وفضلاً عن ذلك...»
وتوقفت فشجعها على مواصلة الحديث قائلاً:
«وفضلاً عن ذلك...»
كانت تعتزم أن تقول: وفضلاً عن ذلك فإنه لو كان هناك شبان فلن أبي أن



يسمح لنا بالاختلاط بهم. ولكنها بدلاً من ذلك قالت:
«لا شيء، ينبغي أن أنصرف الآن... وداعاً.»
وفي اليوم التالي لعيد ميلاد شارلوت السابع عشر في نهاية ذلك الشهر، كسرت ساقها اليمنى... ولحسن الحظ كان الكسر بسيطاً في العظام الخارجية من الساق، ولم يمض وقت طويل حتى استطاعت أن تتحرك بصعوبة في البيت وعلى الشاطئ، وإذ وضعت ساقها في الجبس كان من الصعب عليها أن تركب زورقها الصغير.
وعندما شفيت ساقها كانت قد مضت فترة تصل إلى عشرة أسابيع منذ آخر مرة زارت فيها الجزيرة.
وفي اليوم التالي لإزالة الجبس كانت تجلس في مرفأ الميناء تفكر فيما إذا كان ليام قد أحس بشيء من الحيرة بسبب غيابها الطويل، أو أنه لم يهتم على الاطلاق، وحينئذ لاح على مرأى البصر قارب يجتاز الشاطئ، وعرفته فوراً انه قارب الصيد الأزرق الذي كان ليام قد حصل عليه كنتائج متحول.
وحيث انه كان يوجهه نحو الجنوب، وكاد قلبها يتحطم من اليأس ولكنه حوّل طريقه واتجه نحو الميناء. ولبثت مكانها وعادت إليها حيويتها وانتظرته أن يمسك بحبال المرساة، وأحست بأن السماء اكتست زرقة صافية وأن مياه البحر قد زادت لمعاناً وأصبحت التلال أكثر خضرة.
وقال ليام عندما أدركها في الميناء:
«هلاً أيتها الغريبة! كيف حالك؟»
«أنا بخير... وكيف حالك أنت الآن؟»
«على ما يرام! ماذا حدث لساقك؟»
«لقد كسرت، وكانت في الجبس. وهذا هو السبب في أنني لم أزرك.»
«يالك من مسكينة! يا لسوء الحظ ومع ذلك فإنها تبدو كأنها لم يصبها أذى.»
وعلى الرصيف انحنى لينظر إليها، وقال:
«أين كان الكسر؟»
وربتت شارلوت على اليسرى، وركبت اليمنى لتحدد له بالضبط أين كان

الكبير.

وتحسس «ليام» بأصابعه مقدمة ساقيها وقال:

«ولكن كيف حدث ذلك؟»

«كنت ألعب مع الأولاد وسقطت من سطح المطبخ».

وعلق قائلاً:

«كبرت على هذه الألعاب والشقاوة التي تخص الصبيان».

«نعم، فعمري سبعة عشر عاماً الآن».

ووضعت قدمها على الأرض وتركت يدها على كتفه للحظة أطول. وأحست بأن كتفه قوية كالصخر وسمعته يقول:

«عندما بلغت السابعة عشرة، كنت أحس بأن هناك شيئاً تغير فيك. أما كان ينبغي أن تلبسي قبعة؟»

«قبعة.. لماذا؟»

«لتحمي الجانب الأيمن من الظهور.. فالنساء عندما يكبرن لا يستطعن أن يخفين ظهورهن كما تفعل فتيات السادسة عشرة».

وصاحت تقول:

«أوه، إنك متوحش».

واستأنف الحديث قائلاً:

«كنت أظن أنك لم تحضري لأن أبويك لم يسمحا لك بذلك».

«هل افتقدتني؟»

«كانت هناك لحظات أحسست فيها أنني بحاجة إلى أن أجد شخصاً أتحدث إليه.. حتى لو كان هذا الشخص أنت».

«شكراً كثيراً.. وإذاً فلن أفكر في زيارتك مرة أخرى».

«أفهم من هذا أن أبويك وافقا على أن تزوريني».

«لم أطلب إليهما ذلك بعد.. فلم يكن لهذا الطلب معنى حتى تتحسن رجلي».

«إذن سأطلب إليهما أنا بنفسي».

وبدأ يسير قرب الباب فأمسكت بذراعه تقول:



«هناك شيء لا تفهمه».

«هل تعنين أن أباك من المعارضين للصداقة بينك وبين الآخرين؟»

«نعم إلى حد ما.. وكيف عرفت ذلك؟»

«أحسست به إحساساً داخلياً».

«قد لا يكون لطيفاً لجانبه ولكنه لا يقصد أن يكون فظاً والأمر لا يزيد عن كونه متقلباً بعض الشيء».

«هكذا يكون الآباء أحياناً».

وربتت على يدها يطمئنها.

«لا تقلقي: فلن أسبب له أي ضيق».

كانت تعلم أن «ليام» لا يقصد الصداقة التي يظهرها أبوها لأي شخص غريب إذا ما أحس نحوه بشيء من عدم التقبل.

وظهر «والتر مارتن» في الشرفة المكشوفة وهما يسيران تجاه المنزل فأحست بشيء من الذعر.. وبدأ يهبط الدرج ليقابلهما.. وكانت «شارلوت» تأمل في أن تكون أمها موجودة في تلك اللحظة حين يتقابل الرجلان. وأخذ أبوها يتفحص «ليام» بنظرة غير ودية ولكن «ليام» ابتسم ولم يبد عليه أي اضطراب، وقال:

«أنت السيد «مارتن»؟ أنا «هاملتون» الذي يسكن جزيرة «ماتلو». كنت أقرأ كتابك عن «تاريخ جزر الأنتيل الصغرى» ولدي بعض الوثائق التي كنت أعتزم تقديمها إلى متحف «فكتوريا» الملكي، ولكن خطر لي أنك ربما تجد فيها ما يهمك، وقد تستحق أن يشار إليها في الطبعة المقبلة من مؤلفاتك».

«هاملتون؟ جزيرة «ماتلو» المعروفة باسم جزيرة «سوليفان» على ما أعتقد، والتي تقع على الساحل على مسافة من هنا. كنت أظن أنه لا يقطنها أحد».

«إلى وقت قريب مضى، ولكنها لم تعد كذلك الآن. فأنا أقطن هناك وإن كنت لا أريد أن أذيع النبأ، وأرى أن ما يشاع عن الجزيرة من أنباء غريبة يعتبر في الوقت الحاضر ميزة من وجهة نظري، لأنني أريد ألا يطلع أحد على عنواني».

ونظر إلى «شارلوت»، وواصل حديثه قائلاً:

«ومع ذلك فليس لدي اعتراض في أن تحضر ابنتك إلى الجزيرة من حين إلى حين

فقد فهمت أنها تهتم بحرية واضحة في مجال دراستي الزهريات البحرية.

وأحست شارلوت بشيء من المفاجأة عندما نسب اليهما الاهتمام بمجال دراسته. وكان لذلك أثر السحر على أبيها. وبدلاً من أن يسأله كيف بدأت الصداقة بينهما، ولذلك لم تدهشه ابنته بذلك وعاد الى الدخول وطلب الى شارلوت أن تحضر له بعض الشراب، وكانت هذه أول مرة ترى فيها شارلوت أباها على هذه الدرجة من الكرم.

ونادت أمها بصحبها غلاديا من مهمة كانتا تقومان بها في القرية، وقال قبل أن يقدم رالف زوجته اليه.

«قابلنا أنا وزوجتك من قبل. لقد حضرت الى هنا مرة ولكنك لم تكن موجوداً كيف حالك يا سيدة مارتن؟»

وابتسمت في شيء من الشك، وقالت:

«كان ذلك يوم أن نقلت الى المستشفى يا رالف، وقد نسيت أن أخبرك».

«كل ما قيل عن ذلك المرض كان صحيحاً لا مبرر له. أنا بصحة كاملة، ما رأيك في أن نتناول الطعام الآن معنا يا هاملتون؟»

لم يدرك ليام أن الآخرين حوله كانوا قد صعقوا من المفاجأة لتلك الدعوة النادرة التي أبداها الأب لضيفه، وأجاب:

«أقبل الدعوة بكل سرور شرط ألا يسبب هذا إزعاجاً لبرنامج الطبخ».

وقالت هيلن:

«ليس هناك أي ازعاج».

وقال زوجها:

«هيا بنا الى المكتبة لنتحدث في حرية مثل بعض الرجال». وأسرعت هيلن الى المطبخ لتعطي بعض التعليمات الى فيوليت، ثم عادت وقالت:

«غلاديا، انهضي واحضري بعض الأزهار للمائدة. شارلوت، أسرعي لمعاونة فيوليت. من حسن الحظ أن العشاء سيتأخر حتى الثامنة، وكنت أتمنى أن يكون هناك متسع من الوقت لنصنع شيئاً خاصاً».



وطمأنتها شارلوت.

«لا تضايقي يا حبيبتي، قال ليام. لا يكترث بما يقدم له على العشاء».

كانت شارلوت على صواب، فقد شكر ليام مضيفته قبل أن ينصرف بحرارة قائلاً:

«كانت هذه أفضل وجبة تذوقتها في أسابيع طويلة مضت يا سيدة مارتن، فقد تعلمين أنني أعيش معيشة على جانب كبير من البساطة والتقشف في الوقت الحاضر. ولكني أتمنى أن أرد كرمك عندما تنتظم حياتي».

والتفت الى زوجها قائلاً:

«قد لا أجد الفرصة للحضور لفترة معينة وفي الوقت نفسه لا أود أن أرسل اليك هذه الوثائق بطريق البريد فقد يكون من المناسب أن تحضر أوراقك لأطلع عليها».

وأجاب رالف:

«بالتأكيد... بالتأكيد... ولكن ذلك غداً إذا كان يناسبك».

«حسناً... ولكن قد يكون من الأفضل أن يعهد الى شارلوت بذلك. فالطريق خلال الجزيرة وعر بعض الشيء وهي خبيرة به من قبل».

كانت شارلوت تظن أن ليام سيكون في انتظارها عندما تصل الى جزيرة سوليفان في صباح اليوم التالي، ولكنه لم يكن هناك، وعلى ذلك اتجهت الى منزله وصارت تنادي:

«ليام... هو... أنا هنا».

ولكن أحداً لم يجب... ولم تمض لحظات حتى هبط القط مسرعاً عبر الدرج وأخذت شارلوت تداعب أسفل ذقنه قائلة:

«أهلاً... يا أوليفر... أين سيدك؟»

ونادت ولكنها لم تحظ بإجابة للمرة الثالثة... واجتازت المطبخ الى الباب الخلفي ووضعت يديها حول فمها وصفرت صفارة نداء ولكنها لم تسمع إجابة من خلال الأشجار. كانت الجزيرة ساكنة كما عهدتها عندما كانت تأتي وحدها الى هناك. فيما عدا صوت أنفاس أوليفر... ونظرت الى القط تقول:

«ليس معقولاً أنه ما زال في الفراش؟»

وقررت أن تصعد إلى الطابق العلوي لترى إذا ما كان قد استغرق في النوم. لم تكن غرفة النوم مغلقة بالمفتاح، ونقرت على الباب وانتظرت بعض الوقت ثم فتحت الباب. كان الفراش يدل على أنه قد أمضى ليلة قلقة ولكنه لم يكن هناك الآن.

وفكرت في أن «ليام» لابد أن يكون موجوداً في مكان قريب، فالفراش والصندوق والحقائب والمصباح على الأرض. كانت الأشياء الوحيدة الموجودة في غرفة النوم وكانت الغرفة تعكس مظهر حجرة خالية في بيت مهجور. لابد أن أعصاب «ليام» من حديد أو أنه لا أعصاب له بالمرة. أيكون باستطاعته أن يواصل العيش هنا بدون أن تؤثر فيه الوحدة أو القلق؟

وأحست بالضيق والحيرة بعدما بحثت في سائر الغرف وفي جزء كبير من الجزيرة بلا جدوى. هل تعمد أن يختفي؟ هل أراه شيئاً من الإزعاج؟ واستبعدت الفكرة. أيمكن أن تكون وقعت له حادثة كالسقوط من فوق شجرة أو جرح جرحاً بليغاً وهو يقوم بإزالة الشجيرات والأعشاب؟

وأحست بذعر حقيقي، وأخذت تعدو بأسرع ما تستطيع بدون اكتراث بالجروح والخدوش الناشئة عن اختراق ذلك الممر غير الممهد، وهي تخشى أن تتحقق مخاوفها.

وقادها الممر إلى الشاطىء الثاني للجزيرة. لم تكن «شارلوت» قد حرصت على أن تزوره مرة ثانية بعد الاستكشاف الأول الذي قامت به للجزيرة بسبب الشجيرات الكثيفة والأعشاب التي كانت تجعل الوصول إليه صعباً. كان من الممكن الوصول إلى المكان عن طريق البحر ولكنها كانت تخشى أن يلحظ قاربها بعض الساكنين على الرصيف في قرية الصيد على الجانب الآخر من القناة لو سلكت هذا الطريق.

وأخذت تهرول على الطريق الفرعي الضيق وهي تتوقع عند كل انحناءة أن تصل إلى نهاية الممر ولكنه أدى في النهاية إلى الشاطىء الصخري، وهناك كان «ليام» يرقد منبسطاً بقامته الكاملة على الرمال.

وأحست بالذعر عندما رأته في وضع الانبطاح. كان عارياً إلا من منشفة تحيط



بخصره وكان يرقد على بطنه وقد أسند رأسه على أحد ذراعيه.

واتجهت نحوه وهي تلهث متسللة في سكون. لم يكن فاقد الوعي وإنما كان فقط مستغرقاً في نوم عميق. وركعت على ركبتيها لتختلس النظر إلى وجهه فاستدار جانباً بحيث ظهرت إحدى وجنتيه وبدت مغطاة من المكان الذي ركعت فيه.

كان من الواضح أنه لم يحلق ذقنه منذ زيارته لمنزلهم في اليوم السابق وكان ذلك من الطراز خشناً كما رأته لأول مرة، رموش عينيه طويلة وكثيفة كرموش غلاتيا وأنفه مقوساً بارزاً ينم عن القوة والرجولة. وبدت بشرته فاتحة كبشرة «شارلوت» ولكنها غير مكسوة بالنمش مثلها.

ومست «شارلوت» بأصابعها عظام كتفه في لطف تقول:

«انهض يا «ليام»»

وبدأ يتحرك في بطء وهو يتمتم مستفسراً بدون أن يفتح عينيه:

«من؟»

وكررت:

«ليام! استيقظ»

كانت يدها لا تزال على كتفه، على استعداد لتوقظه بطريقة أكثر قوة.

وكان مستغرقاً في النوم، ودهشت عندما استدار فجأة على ظهره وجعل يده تتسلل إلى ذراعها وتجذبها نحوه قائلاً:

«كم الوقت الآن؟»

وأحست بشيء من الاضطراب جعلها تعجز عن أن تجيب على الفور، ولم يكن بوسعها أن تخلص نفسها لتفر فانتبهت. كانت تتوقع أن يفتح عينيه، ولكنه أبقاهما مغلقتين لأنه كان يستطيع من خلال الوهج الساقط على جفونه أن يحس أنه يرفع وجهه تجاه الشمس ويخشى أن يبهره الضوء، وقد وضع ذراعه الآخر حول خصرها قبل أن تتمكن من الكلام.

وخرج من «شارلوت» صوت بين الهمهمة والصراخ وفتح «ليام» عينيه وتكور جسده كأنما أصابته طعنة رمح وفي حركة سريعة خفيفة انتصب جالساً

يقول:

«ما الذي تفعلينه»

«لم أفعل شيئاً.. على العكس.. أنت الذي فعل.. كنت أوقظك»

«حسناً.. إذا أردت أن توقظيني فعليك أن تركليني بقدمك»

«لقد صممت طويلاً.. ولكنك استدرت فجأة وخشيت.. لا بد أنك كنت تحلم.. لا بد أنك ظننت أنني تارا»

ونهض ليام يحكم الفوطة حوله وهو يقول:

«لا.. لقد ظننت.. نعم.. محتمل.. لا أستطيع أن أتذكر.. إنني آسف.. لا بد أنني سببت لك بعض الازعاج.. أعطني.. كم الساعة الآن؟»

«حوالي الحادية عشرة، على ما أظن، جئت مبكرة على غير العادة»

«يا لندا هل تأثرت إلى هذا الحد؟ اصنعي بعض القهوة بينما أقوم بحلاقة ذقني»

وأخذ يشق طريقه تجاه المنزل أمامها.

وعندما اقتربا من المنزل، قال:

«لن أتأخر أكثر من خمس دقائق، وأنا أشرب قهوتي بدون حليب»

وعندما هبط الدرج كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً قصيراً وقد مشط شعره، وقال:

«أرجو ألا يضايقك إذا كنت سأحلق ذقني هنا»

فهزت رأسها بالنفي.

ووقف يحلق ذقنه أمام مرآة صغيرة معلقة على مسمار ثبت في الحائط

وشردت بفكرها لحظة وتذكرت أنها قد عرفت خشونة تلك الذقن مرتين بينما أختها تلاقيا وهي في التاسعة عشرة من عمرها لم تعرف سوى ليلة ناعمة على وجنتيها وأحست بأنها بذلك أكثر خبرة وسعادة.

وقطع ليام أفكارها يقول في لهجة:

«تبدين كالتلميذة تقلق على الدار»

وأحست أنه بذلك قد جعلها للمرة الثانية تشعر بأنها ما زالت صغيرة لم تنضج بعد.



وسألته وهي تعد القهوة:

«أحقاً لديك بعض الوثائق التي قد تهم أبي؟»

«بالطبع.. وإلا فلماذا قلت ذلك إذا لم يكن صحيحاً»

«حسناً.. كان أمراً غريباً وأنت تتحدث كخبير في علم دراسة المحار»

«كلا على الاطلاق.. قلت فقط أنني أدرس الرخويات البحرية وهذا صحيح وأعرف عنها الآن أكثر بكثير مما كنت أعرفه عندما كنت هنا في المرة السابقة»

وقدم لأرابيلا بعض الخبز المحمص وأخذ يشرب قهوته

وقالت شارلوت:

«كيف أحوال أبي؟ أنت يا من..»

وأكمل هو:

«ناجح في التعامل مع كل الناس»

«حسناً ربما تتهمني بالوقاحة ولكنني لم أكن أقصد ذلك. فقط أقصد القول إن أبي عادة لا يحب أي شخص غريب ولم أكن أعتقد أنه سيضغط على القاعدة لأنك أنت وهو على النقيض. فكلاكما مختلفان»

«بالنسبة إلى الرجل الذي أشرت إليه أنت والذي كان أول له شيء.. ماذا كانت المراقبة؟»

وسردت شارلوت ما سبق أن أخبرها به أبوها وما شهدته بنفسها ثم قالت:

«لم تسأل؟»

«لأنني أحسست أن أباك يعاني من حالة قلق ومن الضروري أن يهتم بوضعه الصحي وأرى أن تنصحوه بأن يضع نفسه تحت الرعاية الطبية»

«إنه عنيد للغاية، حاولت أنا ذلك ولكنه لا يقتنع. لا أريد أن أتحدث عن أبي هكذا.. فأنا أحبه كثيراً وكلنا نحبه»

وشرب ليام فنجانه بدون أن يترك فيه نقطة ثم قال:

«نسيت أن أحضر لك الأوراق.. سأصعد لأحضرها الآن»

وعندما رجع قال:

«علي ارتباط بالذهاب إلى المدينة اليوم يا شارلوت ويؤسفني أنني لا أستطيع

أن أدعوك لتناول الطعام»

كانت شارلوت تتوقع أن تقضي اليوم كله على الجزيرة ولم تستطع أن تخفي إحساسها بالاحباط.

وأعطاها الظرف الكبير الضخم المحفوظ في حقيبة من البلاستيك وسارا معاً الى البحيرة، وقال لها عند حافة الماء:

«شكراً على كل ما فعلت، فأنا لا أعرج كثيراً ومرحباً بك دائماً»

وابتسمت وهي تقول:

«حسناً... أشكرك... الى اللقاء يا ليام»

وهذه المرة لم يصطحبها الى زورقها واكتفى بأن قال:

«وداعاً»

وأخذ يجرص في المستنقع، وأمسك قاربه وقال:

«أنت أولاً...»

وكان يعني بذلك أنها ينبغي أن تسبقه بقاربها عبر القناة.

وأحست شارلوت احساساً لا يكذب أن قصة ارتباطه بالذهاب الى المدينة لم تكن إلا كذبة يختلقها للتخلص منها... وأنه ربما قام بجولة قصيرة في القرية ثم عاد الى الجزيرة كانت في حيرة بسبب تلك المناورة وهي تعبر المنطقة المعروفة باسم أولدماتر بوينت لتقترب من الميناء فلم تلحظ شبحاً يخرج مسرعاً من بيت مارتن ويهرول الى الشاطئ، ليقابلها كان الشبح فيوليت تقول في صوت غريب أجش:

«اسرعي يا حبيبتي.. أسرعي»

واكتشفت شارلوت أن فيوليت كانت تبكي وترتعد في تأثر بالغ. وصاحت شارلوت:

«ما الخبر؟ ماذا حدث؟»

وساعدت شارلوت لتصعد الى الميناء ثم أمسكتها بين ذراعيها وقالت في صوت غالبه الحزن:

«والدك أنول يا طفلتي... ساءت حالته بدرجة كبيرة. ونقلته سيارة الاسعاف الى



المستشفى... وذهبت أمك معه ثم أخذت فلاغيا الأولاد في سيارة تاكسي. وهناك تاكسي آخر في انتظارك يا عزيزتي... ليس أمامنا وقت... سأذهب معك»

مات رالف مارتن قبل الغروب بدون أن يستعيد وعيه بعدما أصيب بالنوبة القلبية الثانية التي كانت أكثر خطورة من الأولى ودفن ظهر اليوم التالي، وعادت أسرته التي فاجأتها الصدمة الى البيت.

ظلت هيلين مارتن لأيام عديدة تبدو كأنها لم تتأثر لوفاة زوجها، كانت تواسي الأطفال وفيوليت وتقوم بأعمالها العادية أو تجلس على الشرفة تطل نحو البحر في هدوء غير طبيعي بعينين لا تدمعان.

وفي إحدى الليالي أيقظ كيت شارلوت باكياً يقول:

«ماما تبكي؛ ماذا نفعل؟»

وأيقظت شارلوت فلاغيا، وذهب الثلاثة الى غرفة أمهم. لكن الباب كان مغلقاً ولم تسمح لهم بالدخول ووقفوا فترة طويلة أمام الباب يستمعون بلا حول ولا قوة الى نحيبها المكتوم وأخيراً ذهبوا الى الفراش، وأخذت شارلوت تعانق كيت وتطمئنه حتى نام بين ذراعيها.

كان وجه هيلين في الصباح التالي يبدو وقد أنهكه الحزن. لكنها تخلصت من النظرة الشاردة في عينيها، وأحست شارلوت بأن تلك النظرة كانت أكثر إلاماً من النحيب العنيف طوال الليل.

وذهبت هيلين الى غرفة مكتب زوجها بعد الافطار ومكثت هناك تفحص أوراقه حتى وقت الغداء.

وبعد الوفاة بحوالي أسبوعين، وكانت قد أرسلت الأولاد الى المدينة بمناسبة الطلبات أخبرت ابنتيها أنها تريد أن تناقش المستقبل معهما وبدأت تقول:

«أرى أنه من اللازم أن ننظر الى المستقبل وإن كنا لا نحس بالرغبة في ذلك... لا أريد أن يحمل الأولاد الهم ولكنكما أنتما الاثنتين أصبحتا كبيرتين الآن بدرجة تؤهلكما لمواجهة الحقائق أياً كانت... بل أرى أنه من الواجب أن تشاركا بالرأي في اتخاذ القرارات المقبلة. إن ما لدينا من النقود لا يكفينا إلا لأشهر قليلة. والمال الوحيد الثابت الذي نملكه هو هذا البيت وهو لا يساوي كثيراً في الوقت الحاضر

ولكن قيمته قد ترتفع كثيراً إذا ما قام شخص باستغلال الخليج، وأعتقد أن ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً لأنه من أجمل المناطق في الجزيرة لكننا لا نستطيع أن نعيش على ذلك الأمل فليس لدينا الوقت... ولذا سيكون علينا أن نقبل أعلى مبلغ يقدم لنا ثمناً له ونعود إلى إنكلترا، ولدينا مبلغ قليل في البنك... أما ثمن البيت فينبغي أن يغطي تكاليف رحلة العودة على السفن على الأقل».

«ولماذا إنكلترا؟ لم لا نذهب إلى الولايات المتحدة؟»

قالت ذلك فلافيا... وكانت ترى أن نيويورك هي المكان الذي تطمح به.

وأحست شارلوت بالروع إذ رأت أمها تفكر في العودة إلى الوطن فقالت:

«هل هذا ضروري يا أمي؟ المطر يسقط دائماً في إنكلترا، وأعتقد أنها الآن أكثر سوءاً مما كانت عندما هجرتها أنت وأبي».

كانت شارلوت قد عقدت صداقات مع عدد من سكان الجزيرة الذين هاجر بعضهم إلى إنكلترا ورغم أنهم كانوا يستمتعون بالحياة هناك فإن وصفهم في الرسائل أفهمها بأنها سوف تشمئز من الحياة هناك.

وعلقت هيلين في ابتسامة باهتة:

«المطر لا يسقط هناك دائماً يا حبيبتي... والطقس في بلادنا لطيف وعلى كل فإنكلترا ليست كاملة، بل ليس هناك مكان يتوفر له الكمال، ولكنها أفضل من أماكن عديدة من أنها وطننا الذي ننتمي إليه».

وعلقت شارلوت:

«أنا أنتمي إلى هنا».

وردت فلافيا:

«لحسن الحظ أنا لا أنتمي إلى هذه المنطقة».

وعلقت الأم:

«ألا ترين أنكما تتمركزان حول نفسيكما؟ ألم تنسيا العصيان؟ أعتقد أن إنكلترا هي أفضل مكان لهم».

كن يجلسن على السرير في غرفة هيلين وعملت أيرليت لتخبرهن أن



السيد هاملتون في الخارج ينتظر أن يقابل السيدة مارتن، وقالت هيلين:

«لابد أنه سمع بخبر الوفاة وأنه جاء للتعزية».

وقالت فلافيا:

«هل تنتظر بأنك تقابله؟»

«لا، من الأفضل أن أقابله، ويمكنكما أن تحضرا كذلك».

وبما أن ليام لم يكن قد سمع الخبر فلم يظهر يظهر من جاء ليبدي التعزية، وألقى عليهن التحية قائلاً:

«طاب يومكن».

ثم قال لهيلين:

«جئت أطلب مساعدتك يا سيدة مارتن، هل يسمح أن أتحدث إليك حديثاً خاصاً ربما استطعنا أن نتمشى على الشاطئ لمدة خمس دقائق؟»

«لا بأس إذا كنت تريد ذلك».

وابتسمت فلافيا بعد أن مضت أمها مع ليام تقول:

«ماذا يريد يا ترى؟»

وعلقت شارلوت:

«وكيف أعرف؟»

ورفعت شارلوت نفسها على الدرابزين الذي يحيط بالشرفة وحطت وظهرها يستند إلى إحدى الدعامات التي ترفع السقف وقالت:

«أما زلت تكرهينه؟»

«نعم».

«لماذا؟»

«أنت تعرفين لماذا».

«أرجوك أن تقولي لماذا».

وأجابت فلافيا في قناعة:

«الأمر لا يعدو المبلغ الذي على فراشه... لا أثق به لأنه الصديق الوحيد

«قد يكون صديقك.. ولكنه ليس صديقي».

وكان على الفتاتين أن تخفيا رغبتهما في الاستطلاع لأكثر من ذلك.

وظل هاملتون وجيليان يروحان جيئة وذهاباً حول نصف الساحة على الشاطئ، منشغلين بحديثهما الخاص، وتوقفا عند نقطة معينة ووقفا ينظران تجاه البيت لمدة دقائق قبل أن يستأنفا تجوالهما. وتوقفا بعد ذلك المرة الثانية، وحفر ليام الأرضية وبدا كأنه يحدث علامات على الرمل المبلل على خط الماء والجزر، وإلى جانبه انحنت السيدة مارتن تتابع ما يقوم به.

وهمست فلافيا في قلق تسأل:

«عمّا يتناقشان، وأياً كان موضوع المناقشة أنا لا أفهم لماذا لا يسمح لنا بالمشاركة؟»

وردّت شارلوت من مكانها على الدرابزين وهي تقول:

«إنها مفاجأة..»

وعندما اقترب هاملتون وجيليان نظرت شارلوت إلى وجه أمها محاولة أن تستطيع ما يساعدها على أن تستشف موضوع المحادثة السرية بينهما.

ونادت جيليان وهي تصعد إلى الشرفة:

«تعالا وانضما إلينا يا ابنتيّ»

وبدا كأنها في شبه مأزق.

وجلست شارلوت وفلافيا الفتاتان لجانبهما واستند ليام إلى الدرابزين وأشعل سيكاراً.

وبدأت جيليان تتحدث قائلة:

«يعرف السيد هاملتون بخبر وفاة بابا.. ولقد فكر في أننا قد تصادفنا بعض المصاعب، واقترح أحد الحلول لمشكلاتنا».

وأضاف هاملتون:

«ولمشكلتي أنا أيضاً».

ونظرت إليه جيليان تقول:

«هل أنت متأكد تماماً من أن..»



وقاطعتها فلافيا:

«أرجوك أن تنتهي إلى الموضوع مباشرة يا ماما».

وبادر ليام إلى إشباع فضولها قائلاً:

«باختصار.. طلبت إلى أمكما أن تحضروا جميعاً لتعيشوا معي في جزيرة سوليفان».

«أوه.. لا».

«أوه.. نعم».

أجابت الفتاتان بالصرخة نفسها من القوة ولكن التناقض بين رد فعلهما كان واسعاً للغاية فقد أحست فلافيا بالرعب بينما عبرت شارلوت عن الترحيب الكامل.

وسأل ليام بنبرة يخلطها المزاح:

«لم لا يا آنسة مارتن؟»

«لأنني لا أريد أن أصبح سجينة في جزيرتك. أنا أشعر بالرضى لأننا متحررتان من كل شيء. أريد أن أعيش كما يعيش الآخرون».

وصاحت جيليان توبخها:

«فلافيا!»

وأصرت فلافيا على مواصلة الكلام قائلة:

«أريد أن أحصل على عمل.. أريد أن أعتمد على نفسي».

وعلّق ليام بعطف:

«بالطبع.. ولكن ذلك سيكون من الصعوبة بمكان إذا لم تحصلي على مؤهلات. لماذا لا تدعين أمك تشرح فكرتي بالكامل قبل أن تتخذي قرارك؟»

وعلقت شارلوت تقول:

«أعتقد أنها مدهشة».

وحذرها ليام قائلاً:

«قد تغيرين رأيك إذا عرفت قدراً أكبر من التفاصيل».

« الشياطين ليست سوداء جداً كما ترسم »

[illegible] الأمريكية

قالت هيلين:

«أرجو أن تسمحوا لي أن أطلب الكثير من السيد هاملتون أن يشغل نفسه بمشكلاتنا، وينبغي أن يكون القرار في صالح الأغلبية».

وقالت شارلوت:

«أنا موافقة».

وأصرت كلاديا على عنادها بالصمت.

ووجه ليام الكلام إلى كلاديا:

«مواردي المالية ليست في حالة طيبة الآن والبيت الذي أسكنه بني ليكون قصراً لأسرة غنية لديها خدم وحشم.. وهو كبير علي في أحوال الراهنة، وأعتزم التحويله إلى فندق».

وأحس أن شارلوت قد ذعرت، فنظر إليها وقال:

«إذا فكرت جيداً ستجدين أنه مشروع أفضل من مشروع صيد السمك».

وسكت برهة، ثم قال:

«تعودتم على نمط غريب من الحياة يجعلكم بحاجة الى فترة لالتقاط الأنفاس قبل أن تتخذوا قراركم بشأن المستقبل، ولهذا أدعوكم لتعيشوا معي أولاً لمدة ستة شهور».

ونظر إلى هيلين واستطرد قائلاً:



«وربما كنتم تتخيلون أن نمط حياتكم الحالي يمكن أن يستمر لسنين طويلة ولم تفكروا في أي نوع من التغيير».

وأومأت ثم طأطأت رأسها وواصل يقول:

«أنا لا أستطيع دفع الأمور الباطلة التي قد تقنع السكان المحليين بأن يغلقوا على عقولهم، ولكن بعد أن تعيشوا على الجزيرة فترة معينة سوف يدركون أن عقولهم وهمية ويقبلون العمل بالأمور العادية، وسوف تعاونونني في التنظيم المنزل ولن يتطلب ذلك قدراً كبيراً من المهارة، فالعمل يحتاج ستة أشخاص أفضل من شخص واحد. لينتا نكون ثلاثة إذا قبلت فيوليت الذهاب معنا».

واعترضت كلاديا:

«إنك تريد أن تنقلنا من القدر التي فوق النار الى النار ذاتها. لقد ملأنا الحياة هنا.. وجميعنا كلكم مستمرين أن يكون أفضل حالاً».

وأيدها هيلين قائلة:

«كلاديا، هذا يجري للداء».

«لم أكن أعرف أنها قبل على أن أغير من رأيي.. أنا أحب هذا المكان، فقد حرمت فيه من المزايا التي تستمتع بها الفتيات الأمريكيات.. هنا ليس عملاء».

وكررت العبارة الأخيرة وانفجرت باكية، وانطلقت الى داخل البيت.

واعتذرت هيلين قائلة:

«آسفة للغاية يا سيد هاملتون».

وحاولت أن تنهض ولكنه وضع يده على كتفها قائلاً:

«لا تشغلي نفسك بها! أنا أقدر مشاعرها إنها مسكينة. هل تأذنين لي أن أذهب لأتكلم معها؟ أين غرفتها؟»

«أخشى أن يسوء الأمر من سيء الى أسوأ».

«أرجوك.. دعيني أحاول».

ورغم تشككها قالت:

«غرفة البنات تلي الكبيرة.. ولكن...»

وابتسم قائلاً:

«اتركي لي الوضع».

وانصرف... ومضت قرابة عشرة دقائق قبل أن يعود وفي عينيه بادرة ضحك، وقال:

«كل شيء على ما يرام، وهي تعني يضمانها الآن. لقد حضرت اليوم بطريق التي والتاكسي ينتظر، ما رأيكم في إلقاء نظرة سريعة على الجزيرة تستطلعون صورة الحياة التي تنتظركم إذا قبلتم اقتراحي، وسيكون بإمكانكم العودة قبل الغروب».

وقالت «هيلن»:

«فكرة رائعة! ليت «فيوليت» كانت معنا، سأترك مذكرة للأولاد أخبرهم بمكاننا لقد يعودون قبلنا، هل تأتين يا «شارلوت»؟».

«أريد أن أذهب معكم».

كانت «فلافيا» في غرفة نومها وكان من الصعب أن يظنّ إنسان أن هذه هي «فلافيا» التي كانت تنهمر بالبكاء. كانت روحها المعنوية قد ارتفعت بشكل واضح، وسألتها «شارلوت»:

«حقاً حدث؟ ماذا قال لك؟».

وأجابت «فلافيا»:

«لقد اعتذر».

«عن أي شيء؟».

«عن كل شيء في تلك الليلة... وعن إبعادي عن الحفل بتلك الطريقة».

وترددت بعض الشيء ثم قالت:

«وقال إن لي عينين جميلتين، وإنني عندما أتعلم أصول الماكياج وانتقاء الملابس سأصبح شيئاً آخر... إنه ليس كريهاً كما ظننت».

ولم تعلق «شارلوت» بشيء.

وأثناء الرحلة إلى القرية المواجهة للجزيرة جلس «ليام» إلى جوار سائق التاكسي وجلست «شارلوت» صامتة بين أمها وأختها اللتين اندمجتا معه في



الحديث، وكانت تلاحظه وهو يلتفت ليجيب عن أسئلتهما وكانت تسأل نفسها هل هو شخص وأمين حقاً؟، وخطر لها أنها لا تعرفه تمام المعرفة.

وركبوا الزورق عن رصيف الميناء حيث تجمع نفر من الفضوليين من أهل القرية، وعندما وصلوا إلى الجزيرة أخذت «شارلوت» تتجول بعيداً وحدها، وأمضى الآخرون شطراً من الوقت داخل المنزل قبل أن تعود إليهم وساورها خاطر بأنه سيكون عليها أن تعود على أن يشاركها في الجزيرة آخرون، ولم تكن قادرة بعد على التحكم في مشاعرها الغامضة إزاء ذلك.

وبعد يوم «ليام» في القرية، وقال وهو يعاون السيدة «مارتن» على السير قرب الشاطئ:

«سأعود يوم الأحد، وأمامكم أربعة أيام لتتوصلوا إلى قراره».

وعبّر الأولاد الثلاثة عن حماسهم للفكرة، أما «فيوليت» فقد عبرت عن خوفها ولم تعر «هيلن» اهتماماً للمخاطر التي تنبأت «فيوليت» بأنها ستقع لهم في الجزيرة ولكنها تشابكت لرغبتها الذهاب معهم.

وقالت «فلافيا»:

«سوف تغيّر رأيها بعد أن تستقرّ هناك أسبوعاً أو أسبوعين».

وعرفت «شارلوت» السبب الذي جعل «فلافيا» تنتقل من معارضي إلى مؤيد من خلال حديثهما معاً في الفراش في تلك الليلة حين قالت:

«وعد «ليام» بأن يعلمني كل الأشياء التي لم أجد الفرصة لتعلمها. يوماً ما...».

«المسائل الاجتماعية مثل السلوك إذا دعيت للعشاء في الخارج... وما شابه ذلك وسوف يساعدني في الحصول على عمل».

لم يكن لدى «ليام» شك في الإجابة التي تنتظره عندما جاء في يوم الأحد. كان قد حضر بحراً ووجدهم جميعاً في الشرفة ينتظرونه، وعندما أخبرته «هيلن» أنهم يقبلون اقتراحه قال:

«حسناً، والآن لنناقش التفاصيل».

وأخرج لفافة من الورق ونشرها على المنضدة قائلاً:

هذا رسم يوضح أماكن الاقامة لكل منا».

والتف أفراد الأسرة حوله ليريا الأب، وقال:

«أقترح أن تشغل السيدة مارتن والبنتان وكيت الصغير الغرف الأربع في الطابق العلوي، أما روب وبيتر فيشغلان الغرفة التي كانت مخصصة لغسل الأطباق، وسوف أنام على أريكة الغرفة الصغيرة الزجاجية وأستخدمها كمكتب أيضاً ونستخدم غرف النوم الثلاث في الطابق الأول للضيوف. هل يناسبكم هذا الاقتراح؟»

وهتفت هيلين:

«بالتأكيد»

«والآن فأول شيء أعمله غداً هو نقلكم الى المدينة لتشتروا الطلاء، وبعض الأدوات، وعلينا تجهيز غرف النوم ويمكنكم الانتقال وسأرتب سيارة لنقل الأثاث الى القرية، ثم نقلها بالقوارب الى الجزيرة، وبعد ذلك نعرض هذا البيت للبيع، وهل ستحضر فيوليت معكم أيضاً؟»

وهتفت هيلين في أسف:

«لا، ولكن ربما غيرت رأيها فيما بعد»

وسألته هيلين:

«من كان مالك الجزيرة قبلك يا سيد هاملتون؟»

«لم أشترها، فهناك صلة قرابة تربطني بالمالك الأول وقد ورثتها عنه»

لم يكن راغباً في الكشف عن طبيعة الصلة بينه وبين المالك الأول لأي شخص فيما عدا شارلوت مما أدخل السرور الى قلبها.

وتناول معهم وجبة العشاء، وبعدها خرج مع هيلين في الزورق ليواصلا حديثهما الخاص، وقد دار جزء منه حول تعليم الأولاد، فاتفقا على أنها اذا ما قررت بعد تجربة الشهور الستة الاستمرار في المشاركة في إدارة الفندق فسوف يرسل الأولاد الى مدرسة داخلية في باراباموس».

وقالت لأبنائها:

«قرر السيد هاملتون أن يدفع لكل منكم أجراً متواضعاً ويدفع لكم أجر الشهر



الأول مقدماً فقد تحتاجون الى شراء شيء غداً».

واعترضت شارلوت قائلة:

«ولكننا لا نستطيع أن نأخذ نقوداً منه.. فليس لديه منها الكثير»

وهتفت هيلين:

«انه مصمم»

لم يكن أحدهم فيما قبل قد إعتاد أن يأخذ نقوداً لينفقها كما يشاء، وحصلت فلاديا على المبلغ الأكبر، وشارلوت على أقل قليلاً، والأولاد بما فيهم الصغير كيت على مبالغ تتناسب مع أعمارهم.

وأنفقت فلاديا كل نقودها في اليوم التالي، فاشترت فستاناً وزوجاً من الأحذية الأنيقة وبعض الأقراط وعقدين أو بكلتين للأزياء، وعاد الصبيان أيضاً بحزم متنوعة واحتفظ كل منهم ببعض النقود، وعادت شارلوت بزجاجة كانت تخفي محتواها، وظهر فيما بعد أنها تحوي زجاجة عطر، وهتفت أمها:

«ولكنها فاخرة، وكبيرة جداً عليك يا حبيبتي لماذا لم تنفقيها في المحل؟»

وأجابت شارلوت:

«انها هدية الوداع لفيوليت، أتظنين أنها ستعجبها؟»

«بالتأكيد انها تلائم ذوقها»

وسألها ليام:

«هل هذا كل ما اشتريته؟»

«نعم فقد فكرت في أن أدخر الباقي»

ونظر الى أمها، وقال:

«كان عليك أن تسمي هذه الفتاة حكيمة».

وأمضى أفراد الأسرة بقية الأسبوع في الجزيرة يطلون جدران غرفهم.

وفي اليوم المحدد للانتقال الى الجزيرة تناول أفراد الأسرة إفطارهم قبل الفجر وأحسوا بالحزن وهم يأكلون وجبتهم الأخيرة في البيت الذي كان مسكناً لهم لسنين عدة برغم أنهم كانوا على عتبة حياة جديدة.

وحضرت الشاحنة بعد الشروق مباشرة لنقل الدفعة الأولى من الأثاث، وقام

روب ويبتر بمساعدة ليام والسائق في عملية الشحن، وبعد العصر كان البيت قد أصبح خالياً تماماً كما كان عندما حضرت جيلي وابنتاها وزوجها ليسكنوا منذ زمن بعيد. وعندما حانت لحظة الرحيل، أخذت فيوليت تبكي وتنتهد لأنها لن تقع عيناها عليهم مرة أخرى.

ولم ينس ليام، برغم ما عاناه طيلة اليوم من جهد في نقل الأثاث والأمتعة بطريق البحر من القرية الى الجزيرة، أن يعد لهم وجبة العشاء. وطلب إليهم بعد العشاء مباشرة أن يخلدوا الى الفراش.

وقالت جيلي:

«ولكن ينبغي أن نغسل الأطباق أولاً»

وعلق ليام قائلاً:

«سوف أعتني بها.. ولا بد أن ترتاحوا، فهناك عمل كبير ينتظرنا غداً. طابت ليلتكم»

كانت شارلوت بعد العشاء بحوالى عشرين دقيقة تقف في النافذة المطلة على الجزيرة وقد سطع عليها ضوء القمر عندما تسلل كيت الى حجرتها يقول:

«أريد أن أنام معك.. لا أريد أن أنام وحدي»

وعانقته وقالت:

«سوف نعتاد ذلك يا كيت.. سريعاً»

«أظن أن يكون البيت مسكوناً كما قالت فيوليت»

«لقد نام ليام هنا لأسابيع عديدة، ونحن في أمان معه»

واكتفى كيت بأن التصق بها

«ستنام معي.. ولكن الليلة فقط»

وفي أحد الأيام في فترة ما بعد الظهيرة، وكان قد مضى عليهم أسبوع في الجزيرة، ذهب ليام الى الشاطئ، ولكنه لم يعد كما وعد في الرابعة مساء وعندما رجع قالت جيلي:

«بدأنا نخشى بحولك.. أرجو ألا تتضايق»

«على الإطلاق.. ولقد أحضرت معي شخصاً.. هل لديكم طعام تقدمه اليه»



«مقدرة فائقة كهذه.. من حضر معك؟»

وأشار ليام الى شخص خلفه.

«فيوليت»

وقفز الجميع من أماكنهم ليرحبوا بها. وامتلأ المكان بالضجيج وسكتت جيلي أولادها وسألت:

«هل حضرت لتقيمي معنا يا فيوليت؟»

وأومأت فيوليت وقالت:

«قال السيد ليام إن سعادتكم لا تكتمل بدوني: وأنا كذلك غير سعيدة بدونكم، فأنتم بمثابة أسرتي. ولن يسمح السيد ليام بأن يقع سوء لأي منا»

لم يمض شهران حتى تغيرت الجزيرة تماماً، وبرز المنزل للرؤية من جهة البحر وكانت شارلوت كلما سنحت الفرصة تمر في الفتحة التي تم توسيعها بواسطة الديناميت، لتحدق من بعد في واجهة القصر المبللة، وأعمدته التي طليت حديثاً، والحواجز التي تسطع بطلائها الأبيض في ضوء الشمس.

وكانت النوافذ تتلألأ ليلاً بالأضواء التي تستمد الطاقة من المولد الجديد. وكان على كيت أن يدور في البيت ليغلق نوافذ الصالة الفسيحة قبل الغروب لمنع الحشرات الطائرة وغيرها من الدخول. وكان هناك مستودع للثلج وعدة كهربية وخلاطة وكلها تدور بالطاقة من المولد. أعجبت بها جيلي وفيوليت كما أعجب الولدان الأكبر سناً بالرافعة الكهربائية.

وبرغم أن ليام كان كثير العودة الى البر فإن أحداً من الآخرين لم يزر المدينة حتى حل العيد العشرون لميلاد شارلوت.

وانتهزت شارلوت الفرصة فاشترت بذلة بحر صفراء واشترت لأخواتها حامل أقلام نقشه دوار وملعب هدية عيد ميلادها. بينما أهداها ليام عقداً. الشعر وشاركت الأولاد في شراء علبة لزينة الأظافر ماينكي. وبعد عشاء عيد الميلاد فتح ليام صندوقاً كبيراً فيه آلة تسجيل وعدد من الأشرطة وقال:

«هذه الآلة المسجلة والأشرطة لنا جميعاً»

كانت شارلوت لفترة تحاول أن تغني شعوراً انتابها بشيء من الكآبة

والقلق يرجع إلى شعورها بالغربة لا من تالاتيا فقط بل من الجميع وحتى من فيوليت ذاتها.

كانت دائماً تعتبر الغيرة انفعالاً عصبياً وأحست بالذعر عندما اكتشفت أن تلك بالضبط كانت الحالة التي تعاني منها. لم تكن تغار من توثق الرابطة بين ليام وأمها وأختها والأولاد وإنما كان يضايقها أن تجد وهي التي عرفته قبلهم جميعاً أن علاقة ليام بها كانت أضعف في التسلسل فقد بدت الآن وكأنها آخر من يهتم به من الأسرة.

وهبطت السيدة مارين الدرج وجلست إلى جانب شارلوت وقالت:

«تالاتيا تتعلم الرقص بسرعة، ولكنه ليس الرقص الذي كنا نعرفه. ومع ذلك فرقصة الفالس والرقصات السريعة لها مزاياها».

وعندما توقفت الموسيقى وقف ليام على حافة الدرج يقول:

«هل ترقصين يا هيلين؟»

«كنت... منذ سنوات».

«تعالي لتؤدي عرضاً أمام البنات».

«نسيت الخطوات».

«غير معقول... أنا واثق أنك لم تنسيه».

ورقصت هيلن الفالس، وأدهشت أطفالها وهي تتبع خطواته كأنها لم تترك الرقص لأكثر من أسابيع برغم أنها لم ترقص منذ أكثر من عشرين عاماً.

وضحكت وهي تلهث قائلة:

«هلا تعطي شارلوت درساً».

وتردد بعض الشيء، ثم قال لها:

«ألا تحبين أن تجربي يا شارلوت؟»

وأجابت على الفور:

«لا... شكراً».

كانت شارلوت في أعماقها تتمنى أن تحس بلمس ذراعه حولها، وألحت عليها أمها أن تهبط الدرج ببطء وتريد المشاركة في الرقص. وكرر ليام ما سبق أن قاله



تالاتيا:

«انسي كل شيء عن قدميك واستريحي واستمعي إلى الإيقاع».

وأمسك يدها وانتظرت حتى بدأت المعزوفة الثانية وبعد أن جذبها إليه لم يدفعها إلى الخلف.

وعندما انتهت الرقصة قالت هيلين:

«أحسنت يا حبيبتي... إنكما ترقصان كأن الرقص غريزياً فيكما».

وقالت تالاتيا:

«إنه دوري الآن... هلا تعلمني رقصات أمريكا اللاتينية فيما بعد يا ليام؟»

«أستطيع أن أعطيك فكرة عامة، ولكننا نحتاج إلى موسيقى مناسبة. أما الآن فأنا بحاجة إلى شراب».

وكانت شارلوت قد ذهبت إلى الفراش قبل أن يعود، وبدا لها في الأيام التالية أنها في كل مرة تلمحه كان يبدو منشغلاً مع الآخرين. كان لديه الوقت لهم جميعاً ما عدا شارلوت... يتحدث إليها على المائدة وكذلك في وجود الآخرين ولا يدخل غرفة وإن وجدها وحدها هناك إلا وجد العذر للانسحاب.

وفي أحد أيام الآحاد حضر مصور ليلتقط صوراً تنشر في كتيب عن الفندق. كان شاباً يدعى ريكاردو تورتيل من جزر الهند الغربية، وكان يعمل بقية الأسبوع في البنك الذي يحتفظ ليام فيه بأمواله. واكتشف ليام أن ريكاردو كان مصوراً هاوياً موهوباً يأمل أن يتحول إلى محترف ذات يوم.

كان ليام قد سبق أن شرح لريكاردو أن هناك إصلاحات أخرى سوف تتم في المبنى قبل أن يستخدم كفندق، وأنه يريد صوراً فوتوغرافية تنقل إلى كبار الزوار الانطباع الذي سيكون عليه المكان عند الافتتاح بدون مبالغة.

وأمضى ريكاردو اليوم كله في الجزيرة يلتقط صوراً أكثر مما يلزم للكتيب ليبيعها لمكتبات الأفلام ووكالات الإعلان.

كان طعام الغداء في ذلك اليوم يتكون من سرطان البحر الذي قدم على طبق كبير بطريقة فاخرة، وحملته فيوليت وهي تلبس فستانها الأحمر اللامع. وعندما حان وقت الظهيرة دخل ريكاردو وأغلق مصاريع النوافذ وظل البيت بظلمة

غضبه غريبة.

وذهبت «شارلوت» الى غرفتها ترتدي بذلة الاستحمام الصفراء، وعندما نزلت الى الطابق الأرضي وجدت «ريكاردو» وحده في الردهة، وصمم على أن يلتقط لها بعض الصور وهي تجلس فوق أحد الزوائد المطلة على المرج.. كانت تشعر أنه يضيّع الفيلم لأنها لا تستحق تلك الصور ومع ذلك أطاعت تعليماته، وشردت تفكر في «ليام» وتمنت أن تكون معها صورة له تنظر اليها في وحدتها.

واكتشفت أنها تحب «ليام» وعرفت أن صداقته وحدها لم تعد كافية لتعيد اليها السعادة، فهي تريد الآن شيئاً أكثر من الصداقة.. تريد أن يصبح لها عنده مكانة رومنسية كما أصبح له لديها.

وعاد «ريكاردو» الى الجزيرة في عطلة الأسبوع التالية ليريهم بروفات الصور التي أخذها ونالت الصور إعجاب «ليام»، قبل أن يبدأ بعرض عدد آخر من الصور التي أخذها لـ«شارلوت» والتي كانت قد نسيت كل شيء عنها.

وقال «روب» يلخص مشاعر الآخرين:

«ظريف.. انها «شارلوت» كنت أظن أن الكاميرا لا تكذب، ولكنها تعمل ذلك لأنها ليست كذلك في الواقع على الاطلاق».

وأحست «شارلوت» بالدهشة نفسها إذ كانت تبدو في الصور أكبر سناً وأكثر رشاقة وجمالاً، وانتهزت الفرصة لتنظر الى «ليام»، كان صامتاً وقال موجهاً الكلام الى «ريكاردو»:

«متى التقطت هذه الصورة؟»

والتفت «ريكاردو» الى السيدة «مارتن» قائلاً:

«أعتقد أن بوسعي بيعها.. لو أنك طيبة».

«انها صور لطيفة.. لكن من ذا الذي يريد أن يشتريها؟»

وأجاب:

«صور الجميلات تطلب دائماً».

وقاطعه «ليام»:

«بالتأكيد لا.. كان ينبغي أن تستأذن قبل أن تلتقطها يا «ريكاردو» تعال الى



المكتب لأسوّي الموضوع معك».

وجمع كل النسخ ووضعها في ملف وترك الغرفة وعلق «روب» قائلاً:

«لقد خاب الأمل في أن تصبحي فتاة الغلاف يا «شارلوت»».

وظل والأولاد الآخرين يضحكون في ضجيج حتى جعلتهم «هيلين» يغادرون المكان.

وسألتها قائلة:

«ماذا لم تقولي لـ«ريكاردو» التقط لك صوراً؟»

وأجابت «شارلوت»:

«نسيت كل شيء عنها».

وظل الأولاد ليوم أو يومين يسعون الى إغاظة «شارلوت» التي ظلت تفكر في السبب الذي من أجله أبدى «ليام» ذلك الاستياء الواضح.. وكانت تود لو أنها طلبت أن تحتفظ بصورة منها ولكنها خشيت أن يتهمها بالعجب والخيلاء.

وفي اليوم الموعود الذي كان السجل الرسمي فيه موضوعاً على مكتب الاستقبال ومعداً لتسجيل الضيوف الأربعة الأوائل قالت «هيلين» وهم يتناولون الفطور:

«ما أسرع ما يمضي الوقت عندما يكون الانسان مشغولاً بالعمل.. كأنما أمضينا أسبوعاً واحداً أو أسبوعين فقط منذ جئنا هنا».

حدث ذلك في أول يوم يصل فيه ضيوف الى الفندق.

وبعد ذلك بحوالي أسبوعين كان بوسعها أن تقول:

«لو أن ضيوفنا يستمتعون بوقتهم كما فعلت أسرتا «هوبتينكر» و «هاليارد» فلن تكون أمامنا مشكلات..»

وكانت شارلوت معجبة كالآخرين لأن الأسرتين «الامريكيتين» استمتعتا بإجازتهما ووعدتا بمدح فندق جزيرة «مالقر» لكل الأصدقاء. ومع ذلك فالنزلاء الذين وصلوا الى الفندق بعدهم مباشرة لم يكونوا أنساً رقيقين منهم ست أشخاص يحتسون الشراب ويلعبون الورق حتى الساعات الأولى من الصباح ثم يتأخرون فلا يستيقظون قبل الظهيرة النسوة يتركن آثار أقلام الشفاه وزينة

العيون على ملاءات الفراش الجديدة. وكل يوم كان هناك على الأقل قنانة سكائر خالية أو صندوق شوكولاتة أو أوراق أخرى ملقاة على الشاطئ، ليقوم إنسان آخر برفعها..

وقالت فيوليت وهي تبدل الأزهار في آخر يوم لاقامة أولئك النزلاء:

«أحمد الله أنهم سيرحلون غداً.. وأدعو ألا نرى مثلهم ثانية».

وهزت فيوليت كتفيها وقالت متفلسفة:

«في رأيي أنهم أفضل من ألا يكون لدينا نزلاء بالمرة».

ونظرت فيوليت إلى الساحة السفلى فرأت ليام أمام المبنى، وقالت:

«من المؤسف أن السيد ليام ليس أكبر مما هو بعشر سنوات كما أنه ليس أصغر بالقدر نفسه».

«لماذا تقولين ذلك؟»

«لو أنه كان أكبر لكان من الممكن أن يتزوج السيدة مارتن، ولو أنه أصغر لكان زوجاً مناسباً للآنسة فلاليد».

لاحظت ذلك بحزن أن ترى الذعر الذي أصاب شارلوت وبعد لحظة صمت قالت شارلوت بحدة في عبوس:

«أعتقد أن الزواج لا يعتمد فقط على السن المناسبة.. ألا ينبغي أن يكون هناك حب متبادل».

وضحكت فيوليت بينها وبين نفسها وقالت:

«لن يجد ليام صعوبة في أن يجعل أي سيدة تقع في حبه».

وفكرت شارلوت في كآبة هل يمكن أن أعرف حقاً شيئاً من الحب»

وفي أحد الأيام قررت شارلوت في فترة ما بعد الظهيرة أن تستكشف لأول مرة ساحل الجزيرة الرئيسي من الجهة الشمالية.. وأرست قاربها وأخذت تسير بخطى متمهلة على حافة شريط صخري ضيق، عندما مر بها شاب طويل القامة ذو شعر أشقر يقاربها في السن، وكان قد وصل على قارب بلون أصفر فاتح من الاتجاه المقابل وأوقفه بالقرب منها وقال:

«معذرة! على الشاطئ، هذه ملكية خاصة! أرجو ألا أكون قد اعتديت على أرض



الغير».

وهزت شارلوت رأسها وقالت:

«ليست هناك شواطئ خاصة على الجزيرة، فالشواطئ ملك للجميع».

«أوه، أنت انكليزية أيضاً، كنت أظنك أمريكية. أنا إيان فريزر. كيف حالك؟»

وابتسم ومد يده إليها

«وأنا شارلوت مارتن».

«هل تقيمين هنا في فندق المياه الخضراء؟»

«كلا.. فأنا أقيم في فندق جزيرة مالفر وأعمل هناك».

«ماذا؟! طوال السنة؟! أنت محظوظة».

«وما موطنك أنت؟»

«اسكتلندا.. هل تقيمين مع أهلك هنا منذ مدة طويلة.. أم أنكم مهاجرون جدد؟»

«أقمنا هنا منذ كان عمري أربع سنوات، وأخوتي الأصغر ولدوا هنا».

وسألها إيان:

«كم عمرك الآن؟»

«سبعة عشر عاماً.. وما عمرك أنت؟»

«ثمانية عشر عاماً.. أكملت تعليمي الثانوي في يوليو/تموز الماضي وقررت أن أتجول لمدة عام في الخارج قبل أن ألتحق بالجامعة. ولكن أجريت عملية قطع لأبي في أغسطس/آب وصمم الأطباء على أن يحضر إلى هنا للراحة ستة أسابيع. أمي ماتت منذ ثلاث سنوات ولم يشأ أبي أن يحضر بمفرده، لذلك جئت معه. وأعتقد أنني محظوظ إذ أتيحت لي هذه الفرصة. والمشكلة أن أبي يأوي إلى الفراش مبكراً فأشعر بالفراغ في الأمسيات ولا أجد شباباً في الفندق، فكلهم لا يقلون عن الأربعين ويصل معظمهم إلى الخمسين أو الستين. ما متوسط أعمار النزلاء في الفندق الذي تسكنين فيه؟»

«معظمهم في منتصف العمر كذلك».

وعبس قائلاً:
«ومع ذلك لا ينبغي أن تحزن فالمكان يستهلك طاقة الانسان أثناء النهار... حيث كل شيء، كالتزحلق على الماء والسباحة والغطس... وغيرها».
كانت شارلوت قد أحست نحوه بالتقدير منذ رأته. والآن وبعد أن حادثته عن دفاتر أحست بالارتياح اليه كأنه من أخوتها... لم يكن حسن المظهر لكن وجهه كان صبوحاً وشعره أشعث بعض الشيء، ولم يكن متكلفاً... وليس مثل ذلك الشاب الذي دعا فلافيا الى الحفلة.
وأمضيا حوالي نصف ساعة يتحادثان قال إيان:
«ليلة السبت من كل أسبوع تجري في فندق المياه الخضراء حفلة راقصة وفي كل ليلة تقام رقصات على الموسيقى المسجلة لكن السبت يعتبر يوماً خاصاً المظهر فيه فرقة حية... هل تحبين أن تحضري هذا الحفل؟»
وقالت في تشكك:
«لا أعرف».
وعلت وجهه حمرة خجل بغتة وقال:
«كان علي أن أدرك أن فتاة مثلك لا بد أن تكون مرتبطة لأسابيع مقبلة».
وكررت وراءه:
«فتاة مثلي؟»
وتردد بعض الشيء، ثم قال على عجل:
«انك أجمل فتاة رأيتها».
كان يتكلم باخلاص وبطريقة جعلت شارلوت تعجز عن الكلام لحظة وقالت بعد صمت:
«أحب أن أحضر الحفل يا إيان ولكني سأستأذن أمي».
ووافق على الفور قائلاً:
«أي بالطبع... هل يبعد محل إقامتك كثيراً؟ هل يمكن أن آتي معك لأقدم نفسي؟»
«انه لا يأخذ وقتاً طويلاً في الزورق! ولكن ما مصير قاربك؟»
«يمكننا أن نربطه فسأحتاج اليه في العودة».



وأرسيا الزورق على الجزيرة عند الشاطئ الصغير. وكان أول شخص قابلاه هو ليام... كان يقوم بحفر بئراً لا تبعد كثيراً عن البئر التي اكتشفها قبل ذلك بأيام قليلة.
وقال ليام وهو ينظر بعين الاستفسار الى رفيقها:
«أهلاً... لقد عدت مبكرة».
وأوضحت له قائلة:
«هذا إيان فريزر... إنه هو مع والده يقيمان في فندق المياه الخضراء».
وقال إيان:
«كيف حالك يا سيدي! جئت أستأذن في السماح لشارلوت بأن تحضر الحفل الراقص يوم السبت في الفندق الذي أقيم فيه. وعندي زورق يمكنني أن أستعمله لأصطحبها في الذهاب ولأعود بها في الوقت الذي تحددونه».
وأخذ ليام يتفحصه، وقال:
«لا أرى مانعاً... ولكن ينبغي أن تستأذن أمها».
وأومأ إيماءة ودية ثم واصل عمله.
وقال إيان وهما يواصلان السير:
«اذا كان أبوك قد وافق... فلا أعتقد أن أمك تعترض».
وقاطعته قائلة:
«ليام ليس أبي! ألا ترى أن سنه لا يسمح بأن يكون كذلك؟»
«آسف... ولكن من يكون إذاً؟»
وشرحت قصة وفاة أبيها... وكيف حضرت أسرة مارلن الى الجزيرة.
كانت هيلين تراجع محتوى حجرات المخزن وتكتب قائمة بالأصناف التي يحضرها ليام في رحلته المقبلة الى المدينة. ورحبت بإيان وأبدت موافقتها على ذهاب شارلوت الى الحفل شرط أن يعيدها قبل منتصف الليل.
وقالت وهم يتناولون العشاء في تلك الليلة:
«يذكرني إيان بشخص لا أستطيع أن أتذكر من يكون».
وعلق ليام:

«هل لديك ما تلبسينه في هذه المناسبة يا شارلوت؟ أنا ذاهبة الى القرية غداً وتستطيعين أن تأتي معي لتشتري ما يلزمك».

وقالت فلافيا:

«وأذهب معكما لأساعدها على الاختيار».

وهز ليام رأسه وقال:

«لا.. لا يمكن أن تتركا العمل أنتما الاثنتين في فترة الصباح. فعليك أن تقومي بعملك بالاضافة الى عمل شارلوت يا فلافيا».

كانت فلافيا فيما مضى تثور على مثل ذلك التحكم ولكنها الآن تقبلت الأمر ببساطة واكتفت بأن تقول:

«لو كنت مكانك يا شارلوت لذهبت الى المتجر الصغير في شارع الكنيسة. فصاحبته امرأة لطيفة وتقدم خالص النصيحة».

وابتسمت شارلوت:

«سوف أفعل».

لم تكن فكرة شراء فستان وراء ما أحست به من إثارة ولكنها اللهفة للتواجد وحدها مع ليام لساعات عدة.

وللأسف لم يكن لها وحدها أثناء الرحلة في الصباح التالي فقد دعا بعض المدعوين للركوب معها وكان يتحدث إليهم لا إليها وعندما وصلا الى العاصمة لم يصحبها في جولتها بل اتفقا على أن يلتقيا أمام المحكمة عند منتصف النهار تماماً ومضى الى عمله تاركاً إياها تراقبه في يأس حتى اختفى.

ووصلت الى المكان الذي تواعدا عليه قبل الموعد بنصف ساعة، وانتظرته على مقعد قليل، ولم تكن مبتهجة كثيراً برغم نجاح مهمتها في شراء ما تريده وارتفعت روحها المعنوية عندما رأته يعبر الميدان وساعة المحكمة تشير الى الثانية عشرة إلا عشر دقائق فاقترحا أن يتناولا وجبة الغداء في المدينة أو على الأقل مشروباً بارداً يتعشيها قبل رحلة العودة.

وأخذ قلبها ينبض عندما رأته يقترب من المقعد مبتسماً وقد رأى رزمة الطرود معها ولكن ابتسامتها لم تدم طويلاً وكان أول ما قاله:



«لقد بحثت مبكرة.. لو تحركنا الآن لنستطيع مع الغداء الركبي في حل بعض الطرود عنك. هلا بنا».

وقالت وقد أحست بشيء من الاحباط:

«فستان وبعض الصنادل.. وأشياء أخرى».

«هلا حدثتني أم تباهي كل ما كنت تريدينه».

ولم تنكر الوطنية وقالت:

«ليس ذلك السبب.. ولكني متعبة وعطشانة».

ولتشتري واحدة من الآيس كريم وهما في الطريق الى مكان انتظار السيارة، وعندما قدمها اليها قالت بجفاء:

«لا.. أشكرك».

ولم يكن قد سألها قبل أن يشتريها اذا كانت تريدها أم لا.. لكنها لم تكن طفلة.. وكانت تحس بالغضب لمعاملتها بتلك الطريقة.

وانطلقت بهما السيارة في طريق العودة في صمت أحست معه شارلوت بالضيق، وعندما بلغا القرية كان حلقها يحترق بالدموع الحبيسة، وعندما وصلا الى الجزيرة حاولت أن تشكره على اصطحابها إياها فأجاب بطريقة عارضة:

«لا شكر على واجب».

كان من الصعب على شارلوت أن تنام في تلك الليلة وظلت تتقلب في فراشها حتى منتصف الليل. وفي الثانية صباحاً تسللت في هدوء من غرفتها وهبطت الدرج. واعتراها الدهشة اذ وجدت بعض الضوء يتسرب من أسفل باب المكتب. لم يكن من اليسير أن تحس ليام يوقع قدميها وهي تهبط الدرج في سكون الى الردهة. وفتح الباب بعض الصدفة لوقعت عيناه عليها وهي في منتصف الطريق بين قاعدة السلم وباب غرفته.

وأصيبت بما يشبه الشلل عندما وقع عليها الضوء فجأة فنظرت بعينين طارقتين أمامه. وهو يقول:

«الى أين؟»

«لا أستطيع أن أنام.. وسأخرج لأستحم في البحر»

واتجه نحوها يقول:

«لا ينبغي أن تصابي بالأرق في مثل هذه السن».

«أنا ... إنها الليلة حارة للغاية..»

لم يكن كما تركته نائماً في سريره ولم يكن قد سكن في الفراش بعد. كان لا يزال يلبس البنطلون الذي لبسه على مائدة العشاء. وكان عارياً حتى خصره وسألها:

«هل اعتدت أن تتجولي في مثل هذه الساعة؟»

وهزت رأسها بالنفي. وبدلاً من أن يطلب إليها العودة إلى غرفتها قال:

«لا تستطيعين أن تسيري وحدك. سأذهب معك. انتظري حتى أخرج ملابسي وأحضر مشلحي»

ودخل غرفته وأوصد الباب بدون أن يغلقه تماماً تاركاً بصيصاً من النور فوجدت نفسها في نوع من الظل الخفيف ذكرها فجأة بتاريخ الليلي والفترة التي كان مهجوراً فيها. أطفأ مصباح المكتب ولم تستطع للحظات أن تبصر شيئاً. وتضاعف أن الضوء الذي كان يدخل عن طريق نافذة على الدرج احتجب أيضاً وأطفأ مصباح المكتب ولم تستطع للحظات أن تبصر شيئاً. وتضاعف أن الضوء الذي كان يدخل عن طريق نافذة على الدرج احتجب أيضاً بسحابة غطت وجه القمر.

ولما لم تسمع صوتاً ينبيء عن وجود أية حركة همست:

«ليام»

ولم تسمع إجابة

وأحست بشيء من الذعر وكررت:

«ليام»

وسمعها صوته وقد اقترب منها قائلاً:

«هنا»

«أين؟»

ومدت ذراعيها بطريقة غير مقصودة أمامه وكادت أن تصطدم به فقد كان



قريباً منها أكثر مما تظن لولا أنه أمسك بذراعيها ليوقفها وسألها:

«ماذا حدث؟»

«لا شيء... فقط أحسست لدقيقة بشيء من الذعر»

كانت يداها تستندان إلى صدره العاري الصلب. وأحست بأنه من السخافة أن تتوهم أنها محاطة بأشياء غريبة. وعلق قائلاً:

«أرجو ألا يعاودك الشعور بالخوف من الأشباح»

وبعد ذلك عبرت القمر إلى الرقعة من جديد وأطلقها ليام بعد أن كان مقترباً جداً وكأنهما على وشك العناق.

وأجابت في صوت خفيض وقد كانت أن يسود الظلام للمرة الأخرى:

«لا...»

وفتح الباب الرئيسي بعناية وسار أمامها عبر الحديقة إلى الشاطئ. كانت السحابة التي حجبت القمر تتجه بعيداً والسماء تبدو صافية.

وعندما اقترب ليام في الشاطئ، وارتعش وقد كانت تتوقع أن يطلب إليها أن تخرج من الماء ولكنه لم يفعل ورأته وهي تخرج من غطسة في قاع البحيرة يتمدد على الرمال يدخن سيكاراً. وجلست إلى جواره وأدارت وجهها لكنه لم يبد حراكاً. ثم قال:

«هل تعرفين أن هذه المياه كانت في وقت ما مليئة بالسلاحف البحرية»

وأحست بالبهجة لأن ليام يتحدث إليها بطريقة ودية كما كان يفعل من قبل.

وسألته:

«هل كنت تحب أن تعيش في هذا المكان في ذلك الزمن منذ خمسمائة عام؟»

«ليس بصفة خاصة... وأنت؟»

«لم يكن يضيرني أن أكون فتاة في شعب الأراواك... فقد كان شعباً سعيداً محباً للسلام، ولو قدر لي أن أعيش منذ ذلك لما كنت أصبر حتى الآن لأنني كنت سأكون متزوجة ولي طفلان أو ثلاثة أطفال»

وجففت قطرة ماء عن وجنتيها وواصلت تقول:

«ماذا أتعجب لماذا كان الناس في تلك الأيام يعتبرون أنهم وصلوا إلى سن النضج في سن أصغر بكثير مما يحدث الآن؟»

«لقد أجبت على هذا السؤال من قبل.. فحينئذ كانت النساء يتزوجن ليلدن الأطفال ويلتزمن بالأعمال البيتية الحقيرة»

«أما زال ذلك واجب معظم النساء؟»

ورأته يبتسم قبل أن يجيب:

«نعم.. غير أنه لهن الآن اختيار أكبر.. فهن لا يجبرن على أن يكن صبية رغماً عنهن. أيضاً فإننا نعيش لفترات أطول وليس من الضروري أن تهبأ الفتيات في إنجاب الأطفال فور نضجهن ولو كان هذا هو القرن الخامس عشر وكنت أنا من نسل الأرزاك لكنت الآن رجلاً هرماً ليس أمامي فرصة كبيرة للحياة لفترة أطول. بل لكنت سعيد الحظ لأنني عشت لفترة أطول مما يحدث عادة»

ومضى قائلاً:

«هل تحسين بحاجة إلى النوم الآن؟»

«ليس كثيراً. إنها ليلة جميلة»

وخلع رداءه وقال:

«اخلعي ملابسك القطنية المبتلة والبسي هذا بينما أصنع بعض الكاكاو»

كان الرداء المخطط يصل إلى رسغ قدمي شارلوت ولفته حولها وثنت أكمامه وربطت حزامه على خصرها.

وبعد أن عصرت ثيابها القطنية ووضعتها في منشفتها وتبعت ليام إلى داخل المنزل.

وبعده في المطبخ. كان قد خلع ثيابه المبتلة ولبس بنطلوناً وقميصاً. وأخذ منشفة جافة من سلة الملابس وقال:

«ألا يمكنك أن تذهبي إلى الفراش وشعرك مبتل»

وشرع في دعك رأسها بلطف. ثم قال وهو يلقي بالمنشفة جانباً:

«هكذا أحسن»

وأكمل ليام عمل الكاكاو وأحضر كعكتين كبيرتين إلى المائدة وقال:



«هل تريدين أن تأكلي شيئاً؟»

وهزت رأسها بالنفي وقالت:

«ماذا كنت تفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ألم تستطع أن تنام أنت أيضاً؟»

وتناول كأسه وقال:

«لا. ولعل هذه إحدى ميزات الحياة في هذا العصر. كان الأرزاك يشربون عصير التيبوت ليستغرقوا في النوم. أتعرفين كيف اكتشفوا أن نبات التيبوت يفقد خواصه المنومة إذا ما تعرض للغليان؟»

كان لديها الاحساس بأنه أدخل لفظة التيبوت في الحديث لأنه لم يكن يريد أن يناقش معها السبب وراء قلقه وقالت:

«لا أعرفه»

وأضاف:

«ولكنه ليس لفظة مشهورة»

وسألته:

«ألا تشعر بالندم الآن يا ليام؟»

«الندم على أي شيء؟»

«على تحويل المنزل إلى فندق.. وعلى أنك ضممتنا جميعاً تحت جناحك»

«ما الذي جعل هذه الفكرة تخطر ببالك؟»

«تذكرت إذا كنت تحس بأنك وقعت في مصيدة.. فلقد اتخذت القرارات بطريقة متسرعة. ولم يكن لديك الوقت لتمعن في الأمر.. والحياة التي تعيشها الآن تختلف كثيراً عن الحياة التي كنت تعيشها قبل أن نأتي إلى هنا»

وتردد قبل أن يجيب:

«ليس لك أن تشفقي علي يا شارلوت.. إنا لا أندم على الحاضر إنما أندم على الماضي فقط» وسألته في حيرة:

«ماذا تعني؟»

وهز كتفيه قائلاً:

«ضيعت كثيراً من الوقت والمال على أشياء لم أكن أريدها حقيقة. والنقود لا تعني الكثير. ولكن الأمر يختلف فيما يخص الوقت. والانسان قادر على تعويض الخسائر المادية أما الوقت فلا يمكن تعويضه».

«انك تتكلم كما لو كنت كبيراً في السن».

«لست كبيراً في السن ولكني كبير على بعض الأمور التي كان من الممكن أن أصنعها منذ عشر سنوات».

«مثل ماذا؟»

وفي هذه المرة عمد الى تغيير الموضوع بطريقة مباشرة فقال:

«الكاكاو سيبرد.. وسوف تشرق الشمس قبل أن تنامي ما فيه الكفاية. الأفضل أن تأخذيه معك الى الطابق العلوي».

«لا أستطيع، لأنني لو أضأت النور لأدى ذلك الى إيقاظ الآخرين، وقد ينسكب في الظلام، وفي حال...»

وارتشفت منه رشفة بحذر، وقالت:

«إنه لا يزال ساخناً.. وأحس بالجوع».

وراحت تبحث في الثلاجة، وعندما عادت ومعها بعض بقايا الأرز وبعض قطع السجق وقطعة كبيرة من الجبن وثلاث قطع من الخبز المغطى بالزبد قال لها:

«سبحان الله.. لن تنامي أبداً اذا أكلت هذا الخليط الذي يدعو الى عسر الهضم».

وقطعت شريحة من الجبن ووضعتها على قطعة من الخبز المغطى بالزبد وقدمتها إليه قائلة:

«ولم لا؟ خذ شيئاً منها».

وهز رأسه قائلاً:

«أكلت ما فيه الكفاية في العشاء. ولكنك لم تكوني جائعة عندئذ».

ونظرت إليه نظرة استغراب. كانت تظن أنه لم يكن يعيرها أي اهتمام أثناء العشاء. فكيف لاحظ نقص شهيتها للطعام؟

وواصل يقول:



«يبدو لي بالفعل أنك لم تكوني تأكلين هذه الفترة. أرجو ألا تكوني تتبعين نظاماً غذائياً قاسياً».

«لو كان ذلك صحيحاً لما أكلت هذا السجق».

«هكذا شأن الفتيات اللواتي يتبعن نظاماً قاسياً للأكل، ثم يفقدن قوة الارادة بعد قليل ويكثرن من الطعام».

وعاد دورها لتغيير مجرى الحديث، فقالت:

«كنت تقول على الشاطئ، ان الناس يحتاجون الى وقت ليتفهموا عاطفياً ما مقدار ذلك الوقت؟»

«المسألة تتوقف...»

«على أي شيء؟»

«على أشياء كثيرة.. الوراثة.. البيئة.. الحالة الاجتماعية...»

«ولذا فبعض الناس ينضج في سن مبكرة نسبياً».

«نعم.. ولكن ليس في مثل سنك».

«لا أستطيع أن أفهم لماذا لا تسلم بحدوث ذلك في بعض الأحيان».

«لأن أهم عامل هو الخبرة. وخبرتك في الحياة محدودة للغاية».

«ولكن خبرتك ليست محدودة، ومع ذلك ضيعت عشر سنوات. فما الذي يدل على ذلك؟»

«لا شيء على الاطلاق. لأن كل منا حالة خاصة. لقد أعطيت نصيباً كبيراً من الحرية في سن مبكرة، وأنت قضيت حبيسة لفترة طويلة. والآن كفي عن الثرثرة واشربي كأسك. ربما لا تحسين بالتعب ولكنني متعب جداً».

وشربت كأس الكاكاو على مضض، وهمست وهي في الردهة:

«شكراً على الوقت الذي أمضيته معك».

«حسناً.. ولكن أقلعي عن عادة التجوال أثناء الليل.. ليلة سعيدة».

«ليلة سعيدة».

وعادت الى غرفتها وهي في حالة نفسية أفضل مما كانت عليه عندما تسللت الى الطابق الأرضي.

كان أوليفر أثناء غيابها قد استقر على وسادتها يستمتع بالفراش الوثير، وتقلبه في لطف الى الحصيرة على الأرض وما كادت تستقر حتى وثب من جديد الى الفراش وكور جسمه بارتياح مستندا الى ظهرها، وظلت يقظة لفترة قصيرة.

وتفكر فيه وهي تربت على فرائه. أوليفر. أتراها ربما بالغت عندما اعتقدت أن ليام كان يعاملها ببرود فربما كان مشغولاً بمشكلات عمله الجديد.

كان أول شخص رأته شارلوت صباح السبت بعد أن استعدت للخروج شقيقتها فلافيا، تقابلتا على الدرج وسألتها شارلوت:

«هل يعجبك فستاني؟»

وأخذت فلافيا تتفحص الفستان الجديد، كان فستاناً طويلاً أبيض، وكانت فتحة الرقبة والأكمام محلاة بشرائط خضراء، وكان الصندل أخضر اللون كما ربطت شعرها بشريط أخضر وضفرته في هيئة ذيل الفرس، واستعملت زينة خفيفة بقلم الشفاه، ولم تكن قد اشترت شيئاً آخر من مواد التجميل سوى زجاجة عطر فرنسي صغيرة غالية الثمن.

وقالت فلافيا:

«إنك تبدين جميلة للغاية»

ولكن شارلوت أدركت أن تعبير شقيقتها مصطنع وأنها لم تقدر الفستان التقدير الكافي. ومع ذلك كانت هي مقتنعة من دراستها لمجلات الأزياء أن البساطة هي السر وراء الأناقة وربما كان ما يؤخذ على فستانها هو أنه يجعلها تبدو أصغر سناً بل أقرب شبهاً بتلميذات المدارس.

كانت هيلين مارتن في المطبخ تعد المايونيز الطازج ورفعت بصرها فرأت ابنتها الصغرى وظهرت على الفور من انفعالها قائلة:

«أوه! إنه ساحر يا شارلوت! استديري... أريد أن أرى ظهر الفستان. إن مظهرك جميل يا حبيبتي... أنا معجبة بتصفيف شعرك وبالشريط والزينة بسيطة للغاية... شكراً لله»

وضحكت ثم واصلت قائلة:

«كنت أخشى ألا تفي فتشتري فستاناً غير مناسب لسنك. ولكن هذا الفستان



مناسب تماماً إنه الشيء الذي كنت أختاره لك»

كانت شارلوت بينها وبين نفسها ترى في تعليق أمها شيئاً من الغلظة فلم تستسغه كما لم تستسغ إطراء فلافيا الفاتر، وواصلت أمها قائلة:

«ننتظر أن يرى ليام مظهرك، إنه في المكتب على ما أعتقد»

وغادرت شارلوت المطبخ واجتازت الردهة. كان باب المكتب مغلقاً وتوقفت لحظة قبل أن تنقر على الباب لتعرف الرأي الوحيد الذي كانت تحرص عليه.

وسمعت صوته يقول:

«ادخلي»

كان ليام يجلس الى مكتبه ينسخ خطاباً على الآلة الكاتبة وقال بدون أن يرفع بصره ليرى من بالباب:

«سأفرغ بعد لحظة»

وواصل الضرب على الآلة الكاتبة.

وأغلقت شارلوت الباب وأسندت ظهرها اليه وهي تحاول أن تبدو أكثر هدوءاً. كانت الفترة التي انشغل فيها عنها تقل عن دقيقة أتم فيها الرسالة وراجع ما كتبه ورفع الصفحة التي نسخها من الآلة ولكنها بدت كأنها خمس دقائق. وأخيراً رفع رأسه لينظر اليها.

وأخذ يتفحصها لحظات كما فعلت فلافيا بدون أن يتكلم ثم زحزح كرسيه الى الخلف ونهض... وفجأة أحست بالشرارة في عينيه جعلت حلقها يجف من الاثارة.

وقالت بصوت أبح:

«حسناً... ما رأيك في؟»

كانت تعرف مسبقاً رأيه فقد سبق أن نظر اليها بالطريقة نفسها وبعد ذلك بثوان كانت بين ذراعيه وراح يعانقها. كانت المعانقة بينه وبينها في هذه المرة ولم يستطع أن يمد ذراعيه ليجذبها إليه كما أنهما لم يكونا وحيدين في المنزل. وقبل أن يدور حول المكتب كان هناك شخص ينقر على الباب ولكنه لم ينتظر حتى يسمح له بالدخول على الفور. كان ذلك الشخص بيتر الذي قال:

«مزيد السيد «لانجلي» مطرودون من مظاريف البريد الجوي، ولا يوجد منها شيء في الخارج. هل لديك شيء منها يا «ليام»؟»

«أعتقد ذلك.»

ونظر «بيتر» إلى «شارلوت» وقال:

«ماذا تقول أنك في أبهى زينة القنابل صديقك ومظهرك ليس سيئاً في أي حال.»

واقترب منها وأخذ يتشمم، وقال:

«وجدت عطرك لذيذاً شممته فور أن فتحت الباب.»

ولم تعلق «شارلوت» بشيء.. ولكنها كانت تود أن تخنقه.. وعندما أعطاها «ليام» مزيد المظاريف الصفراء، سألت «ليام» قائلة:

«هل تعتقد أن العطر الذي وضعته أكثر من اللازم؟»

وأجاب:

«لا يزال «بيتر» صغيراً لا يدرك مغزى ذلك.. ولكن «إيان» سوف يقدره كل التقدير.»

وسقط قلبها إذ افتقدت الومضة التي كانت تضيء عينيه قبل أن يقطع «بيتر» عليهما تلك اللحظة.. ورغم أنهما كانا الآن في جهة واحدة من المنضدة لا تكاد تفصل بينهما بارقة واحدة عاد الحاجز غير المحسوس يفصل بينهما من جديد. وسألته:

«هل أحسست بشيء من الغيرة؟»

«ولماذا أحس بالغيرة؟»

«إنه حدث كبير.. أول موعد في حياة فتاة.»

وأضاف بطريقة جارحة:

«وربما أول قبلة.»

واضطرب نبضها وهي تقول:

«سبق أن قبلني شخص آخر، هل نسيت؟ أنت قبلتني.»

وأدخل «ليام» يديه في جيبيه بقوة وانقبضت عضلات فكه تحت بشرته الداكنة كما أخذ يكز على أسنانه فجأة، وقال:

«نعم فعلت ذلك.. ولكنك لا يمكن أن تحسبي وزناً لتلك القبلة.»



«ولكن أن تقول: كيف؟ ولم لا.» واسترسل يقول:

«والمصري الآن لا تدري أي شيء تقول لما قاله «بيتر».. إن مظهرك جميل جداً، وعطرك فتان. استمتعي بوقتك يا «شارلوت».»

ومشى إلى الباب يفتحه لها وكأنه يوضح أنه لا يوجد بينهما مزيد يمكن أن يقوله أحدهما للآخر.

وبلغنا فندق «المياه الخضراء» وقدم «إيلان» «شارلوت» إلى السيد «فريزر» وكان وجه الشبه كبيراً بين الأب والابن غير أن شعر السيد «فريزر» الكثيف كان يقترب من الرمادي وكان بوجهه خطوط قلق.

ووجدت فيه «شارلوت» شخصاً ساحراً وشعرت من سعادته لأن ابنه عثر على صديقة في مثل عمره ومن المؤكد أنه رآها ثانية ثم استأذن ومضى إلى غرفته.

وقال «إيلان» بعد أن مضى أبي:

«إن أبي المسكين، لقد كبر في السن بسرعة. كان زائد النشاط لو كانت أمي على قيد الحياة لكانت الأمور أفضل يخيل إلي أنه لم يتغلب على الصدمة بعد وأنه لا شك شاعر بذلك. وأعتقد أن أباك يحس بشيء من الضياع بدون أمك».

وأومأت «شارلوت» وقالت:

«هل لك أخوة أو أخوات يا «إيلان»؟»

«نعم، لي أخ وأخت، يكبراني بسنوات ليست قليلة. أختي «ماري» ٢٥ سنة وهي متزوجة من كندي وتعيشان في ... فتذكراني. أما أخي «أندرو» فعمره ٢٢ سنة وهو في «نيوزيلندا» الآن ويعتقد أنه سيقيم هناك، وأنا لا أعرف ما سأفعله بعد. وربما التحقت أنا والذي لا ليس لي حتى الآن أي اهتمام خاص».

«ربما تتحول والدك».

«إنه صاحب مصنع بسكويت ولا بد أنك أكلت من إنتاجه. وشركته تسمى



نفس الشخصين اللذين أسسا «ماكتيير وفريزر» وكان أحدهما هو والده.

وبعد ذلك بساعات قليلة كان «إيلان» قد ودعها بدون أن يقابلها بعد أن قضيا ليلة سعيدة، وأخذت «شارلوت» تمشي على الشاطئ حتى اختفى البحث عبثاً من الأنظار كانت قد استمتعت بالأمسية إلى حد ما ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلها تنسى ولو لحظة ذلك ما حدث في المكتب قبل أن تخرج. كان «إيلان» غاية في اللطف ولم يكن بينهما الانسجام الكامل خصوصاً في ما عدا تقاربهما في السن.

كان «إيلان» يتصف شكلاً بما يدل على نضج في شخصيته ولكن تجاربه في الحياة وقد أمضى أكثر من ثلثي عمره في مدرسة داخلية كانت محدودة مثلها، وكانت خبرته في الشئون الاجتماعية تعوزه رصيده من المعلومات العامة، إلا لم يكن له اهتمام بالمطالعة وأحست بذلك في الساعات الأولى من المساء فوجد أن تحدث كل منهما عن نفسه لم يجد مادة للحديث يشغل بها الوقت.

وعندما دخلت المنزل وجدت «ليام» يقف في قاعة الانتظار يتحدث إلى اثنين من الضيوف. ورأى «شارلوت» في لمحة فتوقف عن الكلام لحظة ونظر إليها مباشرة، لكنه لم يبتسم واستأنف حديثه على الفور مع ضيفيه.

ولم يسأل لم استمتعت بالأمسية في فندق «المياه الخضراء» إلا في اليوم التالي. كانت «شارلوت» في غرفة البياضات تكوي المفارش والفوط ووجدت يظهر عند المدخل.

وأجابته على استفساره:

«نعم، أشكرك».

«ومتى ستقابلان ثانية؟»

«لا أعرف».

«تعرفين بالطبع أنه بإمكانك أن ترجعي إليه الدعوة لتناول الطعام هنا».

«نعم ولكنني لست متأكدة إذا كنت أريد ذلك أم لا».

«ولم لا؟»

«لست مضطرة إلى مقابلته مرة أخرى.. أليس كذلك؟»

وعبس ليام وقال:

«هذا تحيزك».

وإذ لم تجب قال:

«لا بد أن تحدثني يا شارلوت.. ما الذي أغضبك ليلة الأمس».

واستمرت في كي الياقات، وهي تقول:

«لا شيء. لقد تعشينا، وتكلمنا ثم أحضرني إلى هنا»

«هل قررت عندئذ ألا تقابليه ثانية؟»

كان قد ألقى السؤال في هدوء وبلا اكتراث لكن شارلوت لم تنخدع وعرفت أنه لم يكن راضياً وبدأت تدرك السبب.

لم يكن في نيتها أن تخدعه. لكنها لم تستطع أن تقاوم رغبتها الآن في أن تعرف على ما يمكن أن يحدث لو أنها تركته يبني الفهم الخاطئ قليلاً. فأجابت:

«نعم».

كان مستنداً إلى دعامة الباب، وذراعاه مطويتان لكنه الآن اعتدل في وقفته وقال:

«أعتقد أنه من الأفضل أن تحكي لي ما حدث بالضبط».

«ليس هناك ما يقال».

وخطا خطوة واحدة جعلته يقترب تجاهها، وأطفأ المكواة الكهربائية وأدار وجهها نحوه، وقال:

«هذه تحركات كلاماً معاطفاً.. أريد أن أعرف ما إذا كان الشاب قد تصرف بشكل سيء».

وأجابت في برود:

«لا أفهم لماذا!»

«لأنني مسؤول عنك في الوقت الحاضر».

«بدلاً من أمي؟»

«لديها الكثير من المشاكل.. والأفضل أن يحمد بنقل هذه المشاكل إلى رجل».



«في هذه الحالة لماذا لم تتدخل قبل ذلك. وكانت أمامك الفرصة لقد قابلت إيان قبل أن تقابله أمي وبدا أنك تستطعمه»

«ولكن أنت تلك الآن..»

وقاطعته قائلة:

«إذا لم أقل شيئاً. لكنك أنت الذي توصلت إلى استنتاج خاطئ. إذا كان يسعدك الأمر حقاً سلوك إيان بطريقة مهذبة تماماً في الليلة الماضية. بل بلغ به الأمر أنه لم يقبلني وهو يودعني».

وأطبقت أصابع ليام على ذراعيها، وقال:

«إذن لماذا تترددين في مقابلته ثانية؟»

وهزت كتفيها وقالت:

«إنه ليس من شأنك».

وقطب وقال:

«لا أدري من أين تعلمت هذه العبارة، ولكن لا تستخدميها ثانية لأنها لا تناسبك. ما الشيء الذي لا يعجبك في إيان؟»

«لا شيء».

وسكتت لحظة ثم أضافت في حدة:

«لا شيء كذلك لا يعجبني في ريتشي».

«هل تعتبرين أن إيان صغير جداً بالنسبة إليك؟ كم عمره؟ ثماني عشرة؟ تسع عشرة سنة؟»

«عمره ثماني عشرة سنة، ولكنه ليس ناضجاً بما يتناسب وهذا العمر».

وبدا على ليام وكأنه في موقف لكلامي وهو يسأل في سخرية:

«هل خطر لك أنه ربما حاول أن يهبط إلى مستواك؟»

واحمر وجهها وكزت على شفتيها، وقالت:

«هذه قسوة.. بل ظلم».

«وهكذا الحياة؟ أليس من القسوة أن ترفضي صداقة إيان وهو يستلطفك؟»

وتركها قبل أن تجيبه، وخرج قرار الشدة على كرم إيان بكرم عاقل من

شارلوت، فلم تكد تمضي ساعة بعد حديثها مع «ليام» حتى نظرت من نافذة غرفة نومها ورأت «إيان» يقترب من المبنى وقد أحضر أباه معه، وبادرها السيد «فريزر» عندما قابلتهما في المدخل قائلاً:

«طاب يومك يا عزيزتي، أرجو ألا تعتبري حضوري الآن فضولاً، ولكن وصف ابني لمنزلكم جعلني تواقاً لأراه بنفسي، يا له من مكان جميل. كم كنت أتمنى أن تعرف بهذا المكان قبل أن تحضر في عطلتنا الماضية»

وقال «إيان» وهو يبتسم لها:

«إنه الشعور نفسه بالنسبة إليّ»

ورحبت بهما «شارلوت» وبعد أن تحدثت معهما دقائق قليلة ذهبت لتحضر مشروباً وعندما عادت سألها «إيان»:

«يبدو المكان خالياً من الحياة... هل أنت وحدك هنا؟»

«كلا فالآخرون موجودون ويتجولون في مكان ما. يذهب الأولاد للصيد في قارب استأجروه طوال اليوم، وأعتقد أن «ليام» ذهب إلى القرية الواقعة عند الطرف الآخر للتلة مع أمي وأختي للتسوق»

قالت ذلك عندما رأت السيدة «مارتن» و«فاليا» تأتيان من جهة المبنى.

ونهض السيد «فريزر» من على كرسيه وخلع قبعته، وأقبلت السيدة «مارتن» فتحولت ابتسامته إلى حيرة ثم إلى دهشة وقبل أن تقوم «شارلوت» بتقديمه إلى أمها، وجدته يصيح:

«فاليا! فاليا ليسترا»

وتوقفت السيدة «مارتن» فجأة، وهتفت قائلة:

«يا إلهي! فريدريك»

وأمسك بيدها في يده وقد أشرق وجهه قائلاً:

«الحمد لله، بعد كل هذه السنين، إنها لمفاجأة سارة، فكرت فيك كثيراً ولكنني لم أكن أتوقع أننا سنتقابل ثانية»

وابتسمت قائلة:

«لا أكاد أصدق... ولا عجب أن يبدو وجه «إيان» مألوفاً لي يا فريدي، كان عليّ



أن أدرك من يكون عندما سمعت اسم عائلته ولكنني لم أفكر فيك من قبل باسمك الكامل «فريدريك فريزر» إلا كنت دائماً أذكرك على أنك «فريدي» وأعرف أنك من سلالة «ماكنتوش»

وسألت «فاليا»:

«متى عرف كل منكما الآخر؟»

وشرحت أمها وهي تضحك:

«آه... منذ زمن بعيد جداً، منذ خمس وعشرين سنة على الأقل، وربما أكثر، إنني مندهشة أنك عرفتني يا «فريدي»»

«عرفتك على الفور، إنك لم تتغيري يا فاليا العزيزة ولكنني أنا تغيرت كثيراً»

قالها في مرارة.

«تغير شعرك ولكن لم يتغير فيك شيء آخر. فابتسامتك هي هي، وكنت سأعرفك مهما حدث. ولا زال بك أثر حادثة الزلاجة كما أرى. أتذكر ذلك اليوم؟»

وأشار إلى جرح صغير في جبهته

«كانت معجزة أن عنقي لم تنكسر. ظننت أنني مت! أليس كذلك؟»

«نعم، لحظات قليلة فقط أرعبتني، وكانت السماء قد غطت الثلج و...»

وتوقفت «فاليا» ثم قالت:

«هل تعرف أنني لم أذكر شيئاً من تلك الأيام التي قضيناها في العطلة لسنوات... ولكن الآن أتذكر كل شيء بوضوح كأنه بالأمس القريب»

ونظرت إلى ابنتيها، وقالت:

«لا شك أنني حدثتكما عن العطلة التي قضيتها في «اسكتلندا» مع خالي، بينما كان والدي في الخارج، حيث كانت أسرة «ماكنتوش» تسكن المنزل الملاصق للخالة «فلوريا». وكان «فريدي» يعيش معهم لأنه كان وحيداً أيضاً»

والتفتت إليه وقالت:

«ماذا حدث لهم جميعاً... كنت أتراسل مع «مارغريت ماكنتوش» بعد وفاة الخالة «فلوريا» لمدة، ولكن في النهاية انقطع الاتصال بيننا»

وأحست البنتان والشابان أن أمهما وصديقها «فريدي» سوف يستغرقان في

الذكريات لبعض الوقت، فانسحبوا من المكان ليتركوا لها الفرصة.

وقال - إيان لشارلوت:

«هذا حظ عظيم، لا شك أن حديث أبي مع أمك سوف يساعده على التحسن كثيراً، فالناس في مثل عمرهم يحبون أن يتحدثوا في الحديث حول ما كانوا يعملونه وهم في سن الشباب، كنت قد سمعت عن حادث اصطدام الزلاقة ولكني نسيته تماماً وأعتقد أن أبي نفسه حدث معه»

«كلا فأنا لا أتذكر أن أمي حدثتنا به من قبل، سمعنا بعض القصص عن أطفال - ماكنتير - وحركات الشقاوة التي كانوا يقومون بها، ولكن أمي تميل إلى الاستماع أكثر مما تميل إلى الكلام».

ومع ذلك فإن السيدة - مارتن - في الأيام القليلة التالية أصبحت كثيرة الكلام على غير العادة مما أثار الدهشة، بل أنهم لم يألفوا أن يروها تضحك كما كانت تفعل مع السيد - دريبر.

وعلقت - كلاريا - وهي تتحدث عن التغيير الذي طرأ على شخصية أمها قائلة:

«مع أن النكات التي يقولها تافهة..»

لأول وهلة أحست - شارلوت - بشيء من عدم الاستلطاف للسيد - دريبر، ولكن نظراً لأنه كان في الحسن من عمره على الأقل وكانت زوجته معه فإنها لم تكن تتوقع أن تتحول كراهيتها الغريزية له إلى خوف حقيقي من أن يريد أن تتواجد وحدها معه في مكان واحد.

وفي صباح أحد الأيام بعد مرور فترة على وصول أسرة - دريبر - إلى الفندق وكانت قد وضعت لتوها آنية أزهار على المنضدة المقابلة لباب الغرفة فاجأها بطريقة مريبة بأن ضغط على خصرها وقال:

«صباح الخير يا عزيزتي، كيف حالك اليوم؟»

وصرخت وهي تبتعد عنه:

«أوه! يا سيد - دريبر كنت أحسبك ذهبت إلى الشاطئ».

وانتفض جنب قميصه وقال:



«حسبت نشوة السكارى».

كانت أسنانه وأصابعه اصفرت من أثر التبغ وأنفاسه تختلط برائحة الشراب.

وكان يمكن سماع صوته وهو يعاني من أزمة السعال في الصباح، وعجبت شارلوت - كيف تحتمل زوجته أن تقبله. وظنت أنها لم تكن تفعل ذلك إلا نادراً.

ولم تكن السيدة - دريبر - أقل إثارة للنفور من زوجها بصوتها العالي الأجش وشعرها الذي صبغ بشكل فاضح ومرونتها الصناعية التي كانت تضفي عليها مظهر العجائز لا مظهر الشباب كما كانت تريد.

لم تكن هذه أول مرة يعمد فيها السيد - دريبر - إلى مفاجأة - شارلوت، لكنها في المرتين أو المرات الثلاث السابقة حرصت ألا تتواجد معه بمفردها باستعمال مختلف الأعذار.

وعندما قالت في هذا الصباح:

«معذرة!»

وحاولت أن تمضي بعيداً عنه أصر على الإمساك بخصرها وهو يقول:

«سمعت أن هناك شاطئاً آخر للعراة، ما رأيك في أن تصحبيني إليه؟ ولكنه شاطئ صغير للغاية فضلاً عن أنه بلا كراسي أو مظلات، ولكنني أريد أن أراه برغم ذلك. أليس بوسعك أن تعطيني نصف ساعة من وقتك؟»

«آسفة يا سيد - دريبر فأمامي مسؤولية تنسيق الأزهار في أماكن متعددة حول ويدل الأزهار في حجرتي، سأعد لك مشروباً يعين عليك الصبر».

واعتذرت وهي تحاول أن تتحدث بأدب قائلة:

«لا.. أشكرك».

«سوف تجعلينني أظن أنك لا تستلطفينني».

«ليس الأمر كذلك، ولكنني مشغولة جداً في الوقت الحاضر».

ووجدت ذراعه تحكم حولها فقالت:

«أرجوك يا سيد - دريبر».

وبما اتضح أنه ليس أمامها مفر من أن تخلص نفسها بالقوة من قبضته الكريه، وعندما أوشكت أن تطعن خصره الشكري برفقها سمعت شخصاً يصعد إلى أعلى، وربما كان ليام.

لكن الحالة السمعية للسيد دريو كانت أقل حدة وربما ظن أنها عندما تهيجت واستثيرت لبرهة كانت بذلك لا تعترض على أن يداعبها. فحاول أن يقبلها.. ولكنه لم ينجح لأن شارلوت حولت وجهها عنه فجأة، ولأن شخصاً أمسك بكتفه وألقى به إلى الخلف بقوة جعلته يترنح إلى الجانب الآخر من الممر.

ووجه ليام الكلام إليه قائلاً:

- ماذا تظن أنك فاعل.. أيها الأحمق؟

وحاول دريو أن يجيب قائلاً:

- أريدك أن تفهم...

يمكنني أن أفهم جيداً أني لم أجد لديه طاقة يتحدث بها فجرى إلى غرفته وأغلق الباب بعنف وراءه.

والتفت ليام إلى شارلوت يسألها:

- هل أنت بخير؟

لم تكن شارلوت تظن أن ليام يمكن أن يصل به الحال إلى تلك الدرجة من العنف، ولكنها أدركت أنه يمكن أن يصل به الأمر إلى ذلك إذا ما استثير.

وأجابته بإيماءة من رأسها

وقال في انفعال:

- يمكن أن نتحدث سوياً، ولكن ليس هنا.. بل وحدنا.

وأغلق باب مكتبه في الطابق الأرضي وأسند ظهره إليه وقال:

- أخبريني ما حدث بالضبط.

وأخبرته بكل شيء، ولخصت حديثها بقولها:

- آسفة يا.. ليام.

وكانت تعني أنها آسفة لا سبب له أن يتورط في ذلك العراك مع السيد دريو وهو ينقذها منه.



وحدق في برود

- نعم! يجب أن تتأسفي.

كانت شارلوت تريد منه أن يطيب خاطرها ولكنها صدمت من إجابته فقد بدا لها أنه يلقي عليها اللوم واعترضت لذلك.

- ولكنها لم تكن غلطتي.

- وإنها غلطتك بالتأكيد. كان الرجل ينظر إليك نظرات غريبة منذ حل في الفندق كان يجب أن تتحاشي القرب منه.

- ولكنني حاولت ذلك، وكنت أتجنبه، ولم أكن أعرف أنه مثلي على الشاطئ مع زوجته، ولم أكن أتوقع بتاتاً أن يتصرف بتلك الطريقة. إنه في مثل سن أبي.

- كان هذا إنذار.. ولقد حان الوقت لتتحرري من الوهم فأنت لم تعودي فتاة صغيرة بعد ولا يجب أن تتوقعي المعاملة الأبوية من أحد حتى ولو كان في مثل عمر دريو.

وقالت شارلوت:

- إنما حدث هو غلطتك أنت.. فقد جعلتني أحس بأنني صغيرة لدرجة أنني لا أثير رجلاً كامل الرجولة، فأنت تعاملني كأنما كنت صغيرة جداً وأنت جدي، أتريدني أن أنظر إليك بإحترام كذلك؟

والتمعت عيناه بانفعال لم تستطع أن تفهم كنهه، هل هو الغضب؟ لم تكن متأكدة من ذلك.

وأجاب بطريقة مهذبة

- نعم يمكنك أن تفعلي كذلك.

وتركها وكان ذلك خاتمة الترسرح في نطاق عملها

ورحلت أسرة دريو وحل محلها آخرون، وظلت الحياة رتيبة لمدة أسبوع أو أسبوعين، وفي إحدى الليالي بينما كانت شارلوت تستعد للنوم جاءت أمها إلى غرفتها تقول:

- هل أنت متعبة؟ هل يمكن أن أتحدث إليك بعض الوقت؟

ووضعت شارلوت فرشاة شعرها جانباً وقالت:

«عن أي شيء يا أمي؟»
«الموضوع يخص فلافيا كذلك» وهي قائمة.
وجاءت السيدة مارتين من المرآب تتفحص أظافرها، وكانت في الأيام الأخيرة قد بدأت تطليها بطلاء عديم اللون. وعندما وصلت فلافيا قالت:
«أغلقي الباب يا عزيزتي حتى لا ينتقل صوتنا إليه.»
وأغلقت فلافيا الباب وهي تقول:
«لماذا هذا القلق العائلي؟ هل هناك شيء خطير؟»
«لا... ولكن لدي ما أقوله لكما، ولا أدري هل هي مفاجأة. ربما تكونان قد لمحتما.»
ونظرت إليهما متسائلة.
وسألتها شارلوت:
«ماذا؟»
«إن غوردون، وأنا... غوردون فريزر طلب مني أن أتزوجه.»
وحدقت الفتاتان في أمهما بصمت، ثم سألتها فلافيا:
«وهل قبلت؟»
«لم أقبل بعد... فلست متأكدة من شعوركما وشعور الصبيان نحو هذا الموضوع.»
«ولكن، ما شعورك أنت؟ هذا هو الأهم.»
«لا تحيريني بعد. ما الذي تريدينه أنت؟»
وقبل أن تجيب الأم، واصلت فلافيا تقول:
«يكفي أن تقولي نعم. أعتقد أنها فكرة عظيمة.»
«هل تعتقدين ذلك حقاً؟ ما رأيك يا شارلوت؟»
«أتفق مع فلافيا، فالسيد فريزر رجل طيب... ولقد استلطفته منذ أول مرة قابلنا فيها.»
وتنهدت عميقاً واسترخت، وقالت:
«كنت أخشى أن يكون وقع النبأ عليكما سيئاً... ولكن يبدو أنكما كنتما مهيأتين لذلك. هل يوافق الأولاد؟»
وأجابت فلافيا



«بالطبع. ولم لا يوافقون؟ هل عرف إيان بذلك؟»
«قال غوردون إنه سيخبر إيان الليلة.»
وتساءلت شارلوت:
«أتعتقدين أن إيان تطرق إلى ذلك؟ فقد قال لي منذ أيام أنه يظن أن أباه سيقيم هنا بصفة دائمة. وقاله بطريقة لفتت النظر. ولكنني لم أفهم ما كان يعنيه.»
وهزت أمها رأسها وقالت:
«أظن أن إيان لم يفهم قصد أبيه. فغوردون لا يزال في السادسة والخمسين من عمره وليس في نيته أن يعتزل الخدمة بعد. وإقامته الترحيبية مؤقتة وليست إقامته الفعلية، وسوف نعيش في بيته الذي يقع بالقرب من لندن.»
وسألتها فلافيا في قلق:
«متى؟ وبعد كم من الوقت ترحلون؟»
«لا يزال أمامنا الوقت، ولم نتوصل بعد إلى خطة محددة.»
«هل تتزوجين هنا أم هناك؟»
وقالت مبتسمة:
«من الممكن أن يتم الزواج هنا، ولكن حتى ذلك لم يتحدد بعد. لم نقرر شيئاً حتى الآن.»
وأحنت شارلوت رأسها بهدوء وتردد وسألت:
«وماذا عن إيان؟ هل عرف بالموضوع؟»
وابتسمت أمها وقالت:
«أعتقد أنه ربما تطرق إلى ذلك، فإيان ذكي. وسأترك لغوردون التحدث معه الآن.»
وقالت شارلوت في قلق:
«ولكنه يحتاج إلينا ولا نستطيع أن نهجره.»
«لا أعتقد أنه يجد صعوبة في استيعاب موقفنا. أظنك، وغوردون يحب نشاط إيان وذكاءه، ويحترم أن يساعده مالياً ويعتقد أن التفوق المستقبلي ناجح والواقع أن إيان يحتاج إلى رأس المال أكثر بكثير من حاجته إلينا. وسوف نحسن أحواله كثيراً بعد أن نتركه.»
ونهضت تقول:

«ولهذا كانا اتفقا على درجة كبيرة من التعقل والفهم فقابلت ليتحكا يا عزيزتي».

وقالت «فلافيا» بعد أن انصرفت أمها:

«أتخيل أن ماما كانت تخشى ألا توافقي. في رأيي أنها فكرة ممتازة. لم أكن أحلم أبداً بأنها تتزوج من جديد وأن تجد الحل لكل مشكلاتها».

وقالت «شارلوت» في صوت خفيض:

«كل مشكلاتها أنتم».

«هذا تعنين ألا تريديها أن تتزوج؟».

«أريدها سعيدة بالطبع، ولكنني بصفة خاصة لا أريد أن أذهب إلى «اسكتلندا»».

«حماقة يا «شارلوت». أنا لا أفهمك. أمضينا كل حياتنا مسجونة في الغابات المعزولة بعيدين عن كل شيء مثير. ألا ترغبين أن ترى العالم؟ ألا ترغبين أن تعيشي ولو قليلاً؟».

«أنا أعيش هنا وأحس بالانتماء إلى هذا المكان الذي أحبه».

وقالت «فلافيا»:

«حسناً، بإمكانك أن تأتي إلى هنا باستمرار في المستقبل إذا شئت».

وأمضت «شارلوت» في الأيام التالية كأنها مستغرقة في دوامة. ولم يكن بوسعها رغم ما تبديه من مقاومة رغم الكثرات أن تتفادى تلك الدوامة. كان هناك شخص واحد يستطيع أن ينقذها ولكنه لم يبد عليه أن يدرك القلق الذي تجد نفسها فيه. ومن سخرية القدر أن الشخص الذي أحس بما تعانيه كان زوج أمها المنتظر.

وسألها ذات يوم وهما يجلسان وحدهما:

«هل أنت آسفة يا «شارلوت» لأنك عقدت صداقة مع «إيان»؟».

ونظرت إليه في صمت لحظات ولم تستطع أن تتظاهر بأنها لم تفهم ما يقصد. وقالت في هدوء:

«كلا. أنا سعيدة بهذه الصداقة التي تسعد أمي. لقد كانت حياتها قاسية وأنا مسرورة بأنها سوف تكون هانئة من جديد».



«ولذلك لا تنظرين بعين الأمل إلى مستقبلك أنت؟».

وهزت «شارلوت» رأسها وقالت:

«لا أحد من الآخرين يشعر بالانتماء إلى هذا المكان. أما أنا فأحس بهذا الإحساس. ربما كنت انكليزية بالمولد، ولكن في هذا ذلك أنتمي إلى هذه الجزيرة».

وابتسم وقال:

«ولكن هذه ليست الجزيرة الوحيدة في العالم كما تعرفين فهناك جزر في «اسكتلندا» أيضاً. وهي جميلة للغاية. ولن تحرمي من الأشياء التي تحبينها كالسباحة ورياضة القوارب ونحوها في الصيف».

وناقشته قائلة:

«ولكن الصيف قصير للغاية هناك. فهو يدوم أسابيع قليلة. و«إيان» يقول إن الجو نادراً ما يكون حاراً هناك».

وعلق السيد «فريزر» قائلاً:

«السعادة لا ترتبط بالمكان يا «شارلوت» بل تعتمد على الصحبة وحتى لو كان عمرك أكبر بسنة أو سنتين واستطعت البقاء هنا أعتقد أنك ستحسين بالشعور نفسه عندما يذهب عنك أصدقاؤك وأعز من تعرفينه».

واعترفت على الإجابة:

«هذا هو الذي لا يفهمه أي شخص... إن أعز شخص لدي هو «ليام»».

وتقرر بعد مناقشات طويلة أن يتم حفل الزفاف في «اسكتلندا» ورحيل «إيان» وأمه إلى الوطن قبل رحيل أسرة «مارتن» بعض الوقت.

وربما أثار الدهشة أن «ليام» رفض عرض «هوريدون فريزر» بالمشاركة في استثمار الفندق معتذراً بأنه قد يقرر أن ينتقل من المشروع فجأة ومع ذلك فإنه كما توقعت «هيلن» لم يجد صعوبة في استئجار منزل من القرية على الجزيرة الرئيسية بعد أن نسي الناس السمعة الشريرة.

ولم تستطع «شارلوت» أن تفهم سبب عدم اكتراث «ليام» الواضح برحيل أفراد أسرة «مارتن». هل كان من الممكن أمام حبها العميق له ألا يبدي أية مشاعر تجاه أي من أفراد الأسرة.

في الليلة الأخيرة التي قضتها الأسرة على الجزيرة كانت شارلوت تعاني من يأس شديد جعلها تحس بالبؤس، وحين أوى القسيس الى فراشهم مبكرين استعدادا للرحلة الطويلة التي سيقومون بها في اليوم التالي، بقيت هي بدون أن تبدل ملابسها، وانتظرت لمدة نصف ساعة حتى ساد الصمت، وتسللت بباب غرفتها في حرص وتسللت نحو الدرج الحلزوني العريض.

ووجدت شعاعاً من الضوء يتسرب من أسفل باب غرفة ليام كما توقعت، وأخذت نفساً عميقاً ثم نقرت على الباب وسمعت صوته يقول:

- ادخلي.

كان يتمدد على كرسيه المريح وعلى حجره كتاب وإلى جانب مرفقه كأس فيه بعض الشراب وبين أصابعه سيكار. كان الرضى بادياً عليه تماماً، وتعجبت كيف يحس بذلك الرضى بينما تعاني هي كل اليأس.

وعندما عرفها ارتفع حاجباه، وقال:

- أهلاً بك... شارلوت! أما زلت يقظة؟ كنت أظن أنك استغرقت في النوم الآن، وخاصة أنك ستستيقظين في وقت باكر غداً.

- أريد أن أتحدث إليك يا ليام... أنا أناشدك.

- حسناً.

ونهض وأثار دهشتها عندما قال:

- أفضل أن نتمشى على الشاطئ، حتى لا تزعج أصواتنا الآخرين، فالأصوات تسري بسهولة في الليل.

- حسناً.

وخيل إليها أن ضوء القمر سيساعدها على أن تبوح بمكنون نفسها، وتبعته عبر الردهة وهي ترتعد من التوتر العصبي.



- ما هو الحب يا سيدي؟ لا أعرف... ولكن [illegible]

شكسبير

وفي الطريق الى الشاطئ، لم ينبس أحدهما بكلمة. هناك جلس ليام وسألها وهو يحرك حفنة من الرمال:

- ما الموضوع؟

- لا أريد أن أرحل غداً.

- ولكن يجب أن ترحلي يا شارلوت.

وتخلت عن كبريائها وقالت:

- إنك لا تفهمني... أنا أحبك. أحبك يا ليام.

ومضت لحظات بدون أن يجيب، وظل يراقب الرمال تتسرب من راحة يده ثم قال:

- ما زلت صغيرة يا شارلوت، ولذا لا تفهمين ما يختلج في جنانك. كنت أعرف منذ مدة بهذا الشعور.

ولمست في صوته أسى.

- ربما ظننتها نزوة عابرة... أو أنني صغيرة على الحب.

- كلا. فالحب الأول أقوى حب وهو أكثر الانفعالات ألماً.

- إنه ليس ما تسميه الحب الأول... انه حب حقيقي. دعني أبقى معك. أرجوك... [illegible]

- انسانة تقترب مني في السن

«ولكن ما أهمية هذا؟ أعرف أنني لست جميلة أو ذات مركز اجتماعي مثل تارا، ولكنك تعجبني، ومن أول مرة تقابلنا عاملتني... أنا أكبر سناً الآن. أنني امرأة»
وقال ساخراً:
«حقاً يا شارلوت؟ أشك في ذلك»
«نعم، عاملني ثانية وسأثبت لك ذلك»
وخرج منه صوت كأنه ضحكة مكبوتة أو أنة قاسية، بينما بدأت سحابة تغطي وجه القمر ولم يعد بوسعها أن ترى وجهه بوضوح
وقال في هدوء:
«أنت التي طلبت...»
وجذبها بين ذراعيه برقة، وتسلل ذراعاها حول عنقه ولكن عندما عانقها ارتعشت وتصلبت ذراعاها.
وتمتم في أذنيها:
«هيا الى غرفتي الآن»
وتصلب جسمها واتسعت عيناها، وهمست:
«غرفتك؟»
«ولم لا؟ اذا كنت أحببتني»
«ولكنني ما قصدت...»
وأمسكها بعنف حتى أنها صارعت لتخلص نفسها
«لا... يا ليام! لا تحاول!»
«ظننت أنك أحببتني»
«نعم، أحبك، وبعنف كبير، ولكن ليس هذا هو الحب»
وأطلقها في قسوة:
«اذا هكذا... ما الذي صور لك أن بإمكانك تغييري؟»
«لم أتصور ولكنك لست هكذا»
«بلى أنا ومعظم الرجال هكذا... ففي الأمور تكون البادئة من جانب الرجل، فإن أتت من جانب المرأة بدت قبيحة، ولعلك تذكرين هذه الحقيقة في المستقبل»



لم تكن لتصدق أنه يمكن أن يحدث بتلك الطريقة الوحشية، وبدأ يقول:
«لم يخطر لك... من قبل أنني لو كنت مشغولاً بك لتصرفت في تصرف... انك لا أحببتني ولكن مفتونة برجل لا وجود له إلا في خيالاتك الصبيانية»
وأحست بصدمة كبيرة، كان كثيراً ما يلجأ الى اهانتها ولكن لم يسبق له أن سخر منها
وانطلقت مبتعدة فأمسك بمعصمها يقول:
«والآن انك لا تستطيعين الانتظار حتى نرحل غداً وربما كان الوداع هو العلاج»
وخلصت نفسها وهي تقول:
«انه كذلك»
«ليس لك وحدك... فمجموعة الأسرة المحيطة بي أصبحت شيئاً لا يطاق.. الوحدة ليست مشكلتي على الاطلاق»
وأسرعت شارلوت الى الهروب.
لم يكن بامكان شارلوت أن تخفي غضبها للمودعين في الصباح ولكن أحداً لم يعلق. كان الجميع يشعرون بأسى الفراق، حتى فلافيا كانت تحاول أن تكبت مشاعرها. وتغيب ليام عن الافطار ولم تره شارلوت إلا في الرحلة قبل العبور الى اليابسة، وودع الجميع فيليب على الشاطئ، وبكت فلافيا كثيراً بينما لم تبق لشارلوت دموع تذرفها، ووقفت على الرصيف عند القريبة تنظر عبر القناة الى الجزيرة التي لن تراها ثانية. كانت قد أحبتها أكثر من أي أمر آخر تذكره، الآن كانت أول من أثار شجونها.
ووصلوا الى المطار بينما لا يزال أمامهم بعض الوقت قبل أن تقلع الطائرة، ثم حان وقت الرحيل.
وصافحت هيلين ليام قائلة:
«لن ننسى كرمك يا ليام. أرجو أن تعتني بنفسك»
وقبل وجنة هيلين ووجنة فلافيا والتفت الى الأولاد ثم قال:
«وداعاً يا شارلوت ورحلة سالمة»
ورفعت بصرها اليه وقالت:

مواتاة»

ولم يحاول أن يوقفها أو يصاحبها.

بدأت الطائرة تضاعف من سرعتها على المدرج وألقيا حينها النظرة الأخيرة ولوحا بأيديهما من النوافذ فيما هنا «شارلوت» التي قصدت إحدى كبريات الطيران لتدرس مرشدة الجو، ولكن جزيرة «سوليفان» كانت أصغر من أن تشتمل على المطار.

وسألتها أمها وهي تمس ذراعها في عطف:

«هل أنت بخير يا عزيزتي؟»

«نعم ولكنا لا أكون كذلك»

«كنت أخشى أن يعتريك شيء من الاضطراب»

«أنا لا يضايقني الرحيل»

حلقت الطائرة فوق الشاطئ عبر الأفق من شمال الأطلسي وكان الوقت ليلاً وقد خلد الجميع إلى النوم وتذكرت «نيك» وهو يقول «الحب الأول أقوى حب وهو أكثر الانفعالات ألماً». وكيف ألقتها على عمل عندما قابلت وكيف حلمت فيما قبل ذلك بعلي في آفاق السعادة، واقنعت نفسها بأن كل ما قاله لم يكن إلا تخيلاً.

وهبطت الطائرة في «انكلترا» فأحس الجميع بالسرور، وكانت أسرة «فريزر» في الانتظار، ووكزت «هالي» أختها وهما تركبان السيارة الكبيرة قائلة:

«انظري! إنها لا تطير»

وتوقفت السيارة عند إشارة مرور فرأت شخصين من الجزيرة، لم يكن في المنى، وقد اشتريا ملابس شتوية رمادية بدلاً من الملابس القطنية الفاقعة التي يلبسانها في بلدهما، وكانا يضحكان معاً وخطر لها «لا كان بوسعهما أن يحتملا البعد عن الوطن فسيكون بوسعي أنا كذلك».

وضحكت «شارلوت» لنفسها قائلة:

«كان ذلك منذ أربع سنوات والآن آن الأوان التي كانت حالمة ولكني أحس بخوف مذابي. أتذكرين رأيك يا «أنيتا» هل أحبه حقاً أم أنه انفعال مراهقة؟ وماذا لو



يعرفه قد تغير؟ بل ماذا لو كشفت عن حبه الآن؟ هل أكون أسيرة حلا»

كانت «آنيتا» تنصت باهتمام وسألتها:

«ألم يكتب إليك؟»

«لم يكتب إلي، ولكنه ظل يكتب إلى أمي بعض الوقت»

«وهل تعرف أمك بخبر رحلتك؟»

«كلا، لم أتحدث إليها ولا إلى أي شخص على الإطلاق عنه قبل الليلة. لا بد أن يكون قد تغيرت شعوري نحوه عندما عبرنا الجزيرة ولكنها لم تقل شيئاً. وربما ظنت أن مشاعري تبدلت. كانت مشاعر مراهقة سرعان ما تزول. هل هي كذلك؟»

وعلقت «أنيتا»:

«لست متأكدة، ولكن القليل جداً من الناس من يصل إلى النضج في سن الثامنة عشرة، ومن الخطأ أن تتزوج الفتاة في تلك السن. لكني لم أسمع عن مشاعر مراهقة تستمر لأربع سنوات. أعتقد أنك ربما أحببته حقاً على بعدك وبين نفسك تستطيع أن يكون ولع في حبك بالفعل»

«لا، وأنا متأكدة أنه لم يكن يحبني، ولكن الأمر يختلف الآن، فقد تعلمت الكثير في هذه السنوات الأربع»

«وأنا أعتقد لك أن تقابليه، فهل لا زلت تريدينه؟»

«بشرط ألا يكون ارتبط بأخرى»

«لا أعتقد أن هذا محتمل»

«ربما ولكن ألا يكون من سخرية القدر أن أقضي سنوات أربع أحلم بالسحر وأصير أجده تزوج؟»

وتهدج صوت «شارلوت»، وعندئذ قالت «أنيتا»:

«سهرت كثيراً وأنت منهكة. اذهبي إلى الفراش، سأحضر لك مشروبا ساخناً، حضرت وقتاً مناسباً للغاية لأحكي قصتي يا «شارلوت» أيضاً. ستكونين في غاية الإرهاق غداً»

«وقال إنا سعيدة ولم أشعر بالضجر على الإطلاق. لم أكن أفهم لماذا تتجاهلين الرجال الذين يهتمون بك، والآن فهمت السر. لا بد أنه يستحق الهيام، ذلك

«الرجل... ليام هالوران».

«نعم، هو كذلك، أو على الأقل كنت أظنه، منذ أربع سنوات».

وأحست شارلوت بالكآبة من جديد، ودفعتها أنيتا برقة نحو غرفتها وهي تقول:

«هنا، لنفترق. لن أغيب كثيراً».

وسألت شارلوت نفسها فقط بما تقول:

«ألم يخطر لك أن تكتبي اليه لتخبريه أنك تفكرين في العودة لقضاء إجازة، ولتزوري الأماكن التي كنتما ترتادانها؟»

«فكرت في ذلك لكنني خفت. ربما لا يريد أن يراني ثانية. أريد أن أراه ولو لمرة واحدة، لأتأكد من شعوري نحوه».

«لا أقول بأنك يا شارلوت ماري الوحيدة، ولكن من المحتمل أن يعرف عن طريق إجراءات الجمارك شارلوت التي يعرفها وربما كتب الى أمك لتتحقق من معرفة».

«لا لقد سجلت باسم مستعار».

«ماذا؟»

«سجلت باسم كارلا ماليارد واخترت كارلا ماليارد ليطابق الاسم مع الحروف الأولى المنقوشة على حقيبتي».

«اذن سوف تستطيعين أن تختفي الى أن يعرف بعودتك».

«لا أعتقد بوجود فرصة لتعرفه علي ثانية. وسوف أضع نظارة داكنة وشالاً على شعري».

«وإذا ما تبين لك أنه لم يكن يمثل الرجل الذي أحببته».

«عندئذ تكون لي الحرية في أن أحب شخصاً آخر».

ووضعت كفيها فوق وجهها وقالت:

«ولكنه لن يحدث أبداً ولكنه ليس هناك رجل مثل ليام».

وبينما كانت في الاستقبال، وهو يستكمل الإجراءات.

«هل استمتعت برحلة طيبة يا آنسة ماسترز؟»





«نعم.. أشكرك».

لم تكن تتوقع أن تجد تغييراً يشمل كل شيء تقريباً وملأت البيانات المطلوبة وهي في حالة تشبه الدوار، وحرصت على ألا توقع باسمها الحقيقي.

وشكرت الشاب الذي حمل حقيبتها الى الطابق العلوي وأعطته البقشيش.

كان المبنى في أول الأمر يضم أربع غرف كبيرة تطل على الواجهة، لكل منها نافذتان وباب ذو كوة في أعلاه يؤدي الى الشرفة الخارجية. ولكن هذه الشرفة قسمت الآن الى أربع شرفات منفصلة، وتحولت الغرف الداخلية الى أجنحة وتفحصت شارلوت الغرفة التي كان ليام يحتفظ بها عادة، وأصبحت الآن تضم غرف النوم والنوم وحماماً صغيراً، واستعين بسقف صناعي لتصحيح ارتفاعات السقف الأصلي. وبدا الجناح في طراز أمريكي ينسجم مع الطريقة التي تحدث بها كتب الاستقبال.

وبعد انتهائها لأول رحلة بطاقة دعوة من الادارة وجمعت الى جانب وعيل شراب تقول:

«اخدم نفسك بشراب كوكتيل جزيرة هالوران».

وتمددت شارلوت نفسها وخرجت وكأنها يعدها وأسندت مرفقيها الى الدرابزين تحدق في دهشة الى الحديقة الممتدة بين المبنى والشاطئ، في تحسين وجمال.

كان بعض النزلاء يتمددون على حشايا من المواد المضغوط أو على مقاعد وثيرة تحت سعف النخيل، وكان أحد الخدم يلبس سترة بيضاء ويقوم بتقديم المشروبات بينما يحمل زميله الى الفندق وبعده صينية مليئة بالكؤوس الفارغة.

يرن في سمعها صوت من الماضي.. إعلان عاطفي صدر عن ثلاث صغيرة تقول: «سأشتري الجزيرة في يوم ما وأعيش هنا وأزيل كل الأشجار بين المبنى والشاطئ، وأنشئ حديقة جميلة.. سيصبح أجمل مبنى.. وسيتمنى جميع الأثرياء الأمريكيين أن يشتروه.. لكني لن أبيعه حتى بمليون دولار».

كانت الجزيرة تساوي الآن مليون دولار.. ولكن لم يكن حبيبها هو الذي

يتحقق. لقد أصبحت جزيرة «سولنغان» مركز السحر والغموض الى الأبد، وأصبحت جزيرة «ماكور» حلم السائح وليس حلمها.

وفكرت تهيدة: أنها ليست بحال كما رأيتها.. ربما كان كل شيء وهماً وربما كان «ليام» هو الآخر كذلك.

وقررت أن تبقى في غرفتها حتى المساء لتستريح، فاستحمت وتعطرت وجعلت الفرح الى العشاء وتسأل عنه.

كان للتليفون الموضوع في البهو ثلاثة أزرار.. أحدها لخدمة الغرف والثاني للطفيلة والثالث للمكتب، وضغطت «شارلوت» على الزر الخاص بالمكتب، وسمعت صوتاً مجيباً فقالت:

«الآنسة «مايفارد» من الجناح رقم ٦ تتكلم، هل يمكن أن أتحدث الى السيد «ليام هاملتون»؟»

«آسف يا آنسة «مايفارد»، غير ممكن الآن، هل ثمة مشكلة أو مساعدة؟»

«كلا لا أستطيع التحدث الى السيد «هاملتون»؟»

«السيد «هاملتون» غير موجود.. ليس هنا يا آنسة «مايفارد»»

«الى أين ذهب؟»

«في رحلة عمل يا سيدتي، ولكن السيد «لنعمر» على استعداد لخدمتك، ومساعدتك بإذنه»

«لا أعتقد لا تكلف نفسك العناء كنت أريد أن أتحدث الى صاحب الفندق! متى يعود؟»

«يوم الجمعة»

«شكراً.. أشكرك»

وأعادت السماعة الى مكانها.

يوم الجمعة خمسة أيام انتظار! خمسة أيام! يا الله لم يكن قد خطر لها على الاطلاق أنه ربما يكون مسافراً! يا لسخرية القدر!

وتثاقلت أقدامها بعد أنهكتها الرحلة الطويلة واتجهت الى غرفة نومها وألقت بنفسها على الفراش واستسلمت للبكاء ثم استغرقت في النوم بعد فترة.



واستيقظت وكانت الغرفة أكثر ظلاماً وعرفت أنها نامت قرابة الساعتين، وأدركت من الضوء الذي ينفذ من خلال النوافذ الخشبية أن الوقت قبيل الغروب بدقائق وبعد تحول الوهج الناري من الأضواء البنفسجية والحمراء والقرمزية الى ليل. ثم تذكرت الأيام الخوالي التي كانت تعرف فيها الوقت لا من عقارب الساعة بل من لون البحر، وظل الشجر، وحرارة القهوة، ونسمات العطر القليلة.

وسمعت صوت موسيقى لم تكن متأكدة من مصدرها وكانت مصابيح الحديقة قد أضيئت ولبست فستاناً قصيراً أخضر من الحرير الجرسيه لتحضر به العشاء.

كانت أول نزيل دخل قاعة الطعام، وابتهجت عندما وجدت مائدتها في أحد جوانب القاعة، وكان بوسعها أن ترقب الآخرين بمنأى من عيونهم، وتفحصت قائمة الطعام.

واختارت صنفاً قديماً من السمك وهي تمعن النظر في وجوه النزلاء لكنها أحست بشخص يتفحصها من مائدة قبلها والتفتت بطريقة عارضة، فتلاقت عيناها وابتسم لها. واستطاعت أن ترجح أنه شاب أمريكي جاء وحيداً.

أحست به طوال العشاء يحدق اليها كانت طريقته الطبيعية ممتازة، والخدمة كذلك ولم تكد تفرغ من تناول الحلوى حتى جاءها الخادم يسألها:

«تفضلين قهوة يا سيدتي؟»

«شكراً.. سأشربها في قاعة الانتظار»

وشكرته «شارلوت» وتركت قاعة الطعام، وقررت أن تستطلع التغييرات التي أدخلت على مؤخرة المبنى. خطر لها لو كانت «» هنا لعرفت أحوالها أن عاجلاً أو آجلاً.. ولن تتنكر لي.

واكتشفت وجود ملعب للتنس وعدداً من الممرات المضاءة بالمصابيح تتفرع أمام مجموعة من الأكواخ تحمل أسماء مثل «كوخ مولفين» «كوخ الرمان» ونحوها.. وكان من الواضح أن «ليام» بنى العديد من الأجنحة المستقلة التي يفضلها الأزواج الجدد وأولئك الذين لا يحرصون على الاستمتاع بالسهرات داخل المبنى، وعادت لترى التغييرات التي أدخلت على قاعة الانتظار ووجدتها

قد شغلت بأمر الأولاد.

وأحضر الغلام القهوة وأخذت تقلب صفحات المجلة الأمريكية المعروفة باسم «فوليدان» وسمعت صوتاً يقول لها:

«أعتذر عن مضايقتك على مائدة العشاء. لم أستطع أن أقاوم رغبتي في أن أرسمك. ولكنني لن أكرر ذلك».

كان هو الأمريكي الذي يقيم عرضه في الفندق. ووضع صحيفة على المجلة التي أمامها، ووجدت أن الصورة لها بالفعل وقد رسمت بدقة ومهارة وسألته:

«وكيف عرفت أنني تضايقت؟»

«لأنك جلست في توتر حتى أتاك الطعام. أكرر اعتذاري لقد عرفت الطريقة التي استقبلت بها شعوري اتجاهك، وأزالت الطريقة علامات القلق ليس هذا اللقاء ولكنه الحقيقة».

وسألته:

«هل الرسم مهنتك؟»

«نعم، جئت إلى هنا لأسباب صحية من جهة ولأقوم بتسجيل بعض الانطباعات كواجب مهني من جهة أخرى. آسف لم أحضر لأقص عليك قصة حياتي ولكن لأعتذر وسأجلس مستقبلاً في مكان آخر. أسعدت مساء يا آنستي».

وخرج وقد ترك الرسم معها. وكان يعاني من عرج بسيط وتعجبت كيف عرف اسمها وفكرت في الأسباب التي وراء علة ساقه وظنت أنها ستلاحقه إلى حد ما.

وصعدت إلى الطابق العلوي وفي نيتها أن تنام مبكراً لتستيقظ مع الشروق وتستحم في البحيرة قبل أن يستيقظ الآخرون. لكنها قابلت على الدرج العريض امرأة من الجزيرة ذات صدر عارٍ وقدمين عاريتين تلبس فستاناً بحرياً أنيقاً له ياقة بيضاء وتحمل سلة من الفاكهة ولوحاً للكتابة وبعض الأوراق.

وابتسمت المرأة وكانت تواصل سيرها لكن شارلوت أمسكت بذراعها قائلة:

«فيوليت، ما أروع أن أراك ثانية».

ولوحت لها فيوليت وهي لا تكاد تصدق.



«يا إلهي! شارلوت الصغيرة!»

واغرورقت عينا شارلوت بقطرات الدمع من عيني فيوليت التي ألقت بالفاكهة وعانقتها عناقاً حاراً، وانهالت الأسئلة من كل منهما لم توقفهما ربما تضحكان من الاضطراب الذي وقعتا فيه.

وقالت شارلوت:

«لا نستطيع أن نتكلم هنا لنذهب إلى غرفتي. لكن لا أتصور أبداً يا فيوليت أنك تعرفينني. الاسم الذي ينادونني به هنا هو «كلير مانيار». أريد أن تكون مفاجأة لـ«تيام» عندما يعود من «باراباموس». كيف حالك يا فيوليت؟ هل تزوجت؟»

«تيام! متزوج؟ ليس لديه وقت للزواج يا حبيبتي. لقد تزوج العمل. تغير كثيراً بعد رحيلكم إنه يريد أن يجعل الفندق أفخم من قصر باكنغهام».

وفتحت شارلوت الباب، وقالت:

«هل تظنين أنه سيسر لرؤيتي؟»

«لا أتصور أنه ينساك بعد المساعدة التي قدمتها إليه».

«تعالي واحكي لي أخبارك. إنك تبدين وكأنك رئيسة مستشفى في هذا الزي. هل هو زي العمل الرسمي؟»

وابتهجت فيوليت:

«أنا مديرة الفندق الآن ومن واجبي أن ألبس زياً أنيقاً».

وتحدثتا لوقت طويل وقالت فيوليت:

«كنت أظنك تزوجت الآن ولديك أطفال يا آنسة شارلوت».

«أوه يا فيوليت، لست الآنسة شارلوت بل ناديني حبيبتي، كما كنت تفعلين حتى أحس بالسعادة من جديد... ألست سعيدة هناك؟»

«أوه نعم ولكنني كبرت الآن والحياة ليست بالبساطة كما كانت فيما مضى. أريد أن تحتفظي بوجودي سراً حتى يعود تيام».

وانصرفت فيوليت إلى عملها بعدما تمنت لشارلوت ليلة سعيدة.

كانت ظلال الليل لا تزال تمتد على معظم الحديقة عندما خرجت شارلوت

لتستحم في الصباح الباكر وانزلقت في الماء وقد أطلقت تنهيدة تعبّر عن سرورها الكامل. ولم يكن ثمة شبه بين مياه البحر في انكلترا وهذه المياه الدافئة اللامعة التي عانقتها بحب لا يقل عن حب [illegible] وعناقها في الليلة السابقة.

وتذكرت بصوت عال وهي تغوص الى ما تحت السطح تقول لنفسها: «إنك لم تتغيري».

لم تمكث طويلاً تحت السطح فقد عانت من نقص التدريب. كما أنها خشيت أن تحمر عيناها فتشوه الصورة التي يراها ليام عندما يتقابلان بعد الزمن الطويل الذي انقضى.

وعادت الى سطح الماء من جديد تسبح في استرخاء كما يفعل السياح.

وكان هناك شخص آخر استيقظ في تلك الساعة الباكرة: السائح الأمريكي الذي لم تكن قد عرفت اسمه بعد وقد وصل الى المكان في الوقت نفسه حين خرجت هي من المياه وقال:

«صباح الخير، حسبت أنني الطائر الوحيد الذي يحوم في هذا الوقت».

وحلت عقدة رأسها ونفضت الماء عن شعرها الطويل وهي تقول:

«إنه أفضل الأوقات لي».

وسألها وهو يساعدها على ارتداء إزارها:

«هل حضرت الى هنا من قبل؟»

«نعم.. وهل سبق لك أنت ذلك؟»

«لا، هذه أول زيارة لي».

وجففت وجهها وأخذت تستنشق هواء الجزيرة الطلق. وقال في نشوة:

«أشعر بأنني بعثت الى الحياة. وأحس أن بوسعي أن أقتلع عجلات إحدى العربات».

وسألها مبتسماً:

«أطلب لك طعام الافطار هنا اذا رغبت؟»

«سأطلبه بنفسي، ويمكنك أنت أن تستحم. ولكن.. هل أطلب لك كذلك. كم ستمكث في الماء؟»



«لن أمكث طويلاً».

وقابلت «شارلوت» أحد الخدم وهي في طريقها الى المبنى، وطلبت الافطار لشخصين.. وعندما عادت الى الشاطئ، كان الأمريكي قد سبح وقد وصل الماء الى وسطه، وكان قد خلع رداءه وتركه قرب حافة الماء. وعندما خرج ارتداه قبل أن يجتاز الرمال الى حيث جلست. لكنها رأت شيئاً أراد أن يخفيه انه اثار جرح مزروع في ساقه. ويعرف انه رآه فقال بعد أن جلس الى جوارها:

«آسف.. كنت أود أن أخفيه.. فانه منظر بشع».

«ولكن كيف وقع ذلك؟»

«في حادث سيارة. وكدت أن أفقد ساقي لولا حسن حظي. أرجو أن تنسي أنك رأيتها. أخشى أن يطلبوا مني مغادرة الفندق لأن منظر ساقي مريع للنزلاء».

«ليس فيها ما يوجب الضيق للآخرين، ومع ذلك فهناك شواطئ صغيرة حيث لا يراك أحد وسأصحبك الى أحدها إذا أحببت».

«أشكرك! ما رأيك في أن يكون ذلك اليوم؟ إذا لم يكن لديك برنامج آخر».

«انا حرة حتى يوم الجمعة».

«حسناً.. حالما ننتهي من الافطار سنستعير قارباً ونخرج للاستطلاع».

وواصل يقول:

«اسمي [illegible] بالمر [illegible]».

وأخذته الى أحد الخلجان الصغيرة بين الجزيرة والموقع المعروف باسم هوروتونسيا.

وسبحا وأخذ حماماً ثم سبحا من جديد وحان الوقت لفتح سلال الطعام التي كان الفندق قد أعدها لهما وسألها:

«ماذا عن يوم الجمعة؟ قلت أنك حرة حتى ذلك الوقت».

«أتوقع أن أقابل صديقاً قديماً».

«رجل؟»

«نعم».

«اعذري لي فضولي. ولكن، هل أنت مرتبطة بشخص آخر؟»

«فلماذا تسأل؟»

«لأنك في الدقيقة التي عرفت فيها أن تريني هذا المكان بدا عليك شيء من الشرود».

«إنك شديد الملاحظة»

وحولت مجرى الحديث فقالت:

«أعتقد أنك شديد الحساسية تجاه العرج التي تعاني منه إنها حالة بسيطة للغاية، الرجال ينظرون إلى سيقان الفتيات، ولكن الفتيات لا ينظرن إلى سيقان الرجال، فضلاً عن أنه لديك كل المقومات».

وضحك وقال:

«حقاً، وما هي تلك المقومات؟ بالتأكيد ليس منها المال... ورغم هذا يحوي في هذا المكان لبعض الوقت القصير».

وتناولا طعام العشاء معاً، وعرفت أنه سبق أن تزوج وهو في العشرين بزميلة له في الدراسة وعاشا في سعادة لمدة خمس سنوات.

ولم يكن قد مضى أسبوعان على زيارتها للطبيب الذي أكد أنها حامل قاما برحلة لزيارة والديها، وشاءت الأقدار أن تصدمها سيارة تخطت إشارات المرور هكذا وماتت «ليزا» متأثرة بجراحها بعد ثلاثة أيام.

وصدمت «شارلوت» وقد روعتها رواية الحادث

«أوه... بن»

«ما كان ينبغي أن أقص عليك ذلك... وفي أي حال لقد استمتعنا استمتاعاً كاملاً بخمس سنوات بينما هناك أناس لا يستمتعون ولو بقدر يسير من حياتهم».

وعندما حان الوقت ليقول كل منهما للآخر - طابت ليلتك - أحست «شارلوت» كأنهما تقابلا منذ زمن بعيد ونهضت في الصباح التالي لتأخذ حمامها الباكر. فكان قد سبقها إلى الشاطئ، وأمضيا معاً يوماً ممتعاً.

ويوم الأربعاء ذهبا إلى العاصمة وأخذ «بن» معه أوراق الرسم وأمضى قرابة الساعة يرسم منظر الواجهة البحرية بينما أمضت «شارلوت» الوقت في التجوال حول المدينة تلقي نظرة على المتاجر العديدة الجديدة التي فتحت بعد رحيلها.



وخطر لها وهي تعتني بوجهها استعداداً للأمسية: بعد الغد سيكون «ليام» هنا.

وقال لها «بن» عندما لحقت به إلى الليل:

«أود أن أقضي نهار الغد أرسم صورة لك... إذا كان ذلك يناسبك».

ووافقت قائلة:

«لا مانع».

وقال وهما على وشك الانتهاء من العشاء:

«يبدو عليك شيء من التعب... وهناك ومضة جديدة لم أرها قبل اليوم».

«حقاً، ربما كان ذلك من أثر الشمس. وأنا أحب أن تصبح بشرتي...»

وعلق يقول:

«ولكني أشك في استعدادي للعيش في هذا المناخ الذي لا أشعر فيه بالحيوية».

«أما أنا فالطقس البارد هو الذي يجعلني كسولاً، وهنا أصحو مع الفجر وأظل يقظة حتى منتصف الليل، وطاقتي تتضاعف. وربما هذا هو السبب...»

وجاء صوت «ليام هاملتون» يقول:

«أسعدتما مساء»

ورفعت «شارلوت» بصرها ورأت «ليام» يقف إلى جوار المائدة يرقبها بتعبير لا تفهم كنهه. إنه التعبير الذي بدا على وجهه وهو يودعها منذ أربع سنوات، وأحست كأن العالم يتأرجح من حولها، وسأل وهو يلتفت إلى «بن»:

«السيد «بالمر» والآنسة «ماينارد»»

ونهض الأمريكي يقول:

«نعم».

«أنا «هاملتون» صاحب الفندق. أتمنى أن تكون الخدمة بالدرجة اللائقة من العناية، وأن ترضي جزيرة «مالطا» توقعاتكما».

«إننا نستمتع بوقتنا إلى حد بعيد».

«هل تقبلان أن أجلس معكما لحظة؟»

«بكل سرور».

كان «بن» على وشك أن يشير إلى الخادم ولكن الرجل الآخر أوقفه وأعطى أمراً

بصوت خافت.
وقال بن:
«لا أظن أنني رأيتك من قبل يا سيد هاملتون».
«لا. كنت في باربادوس، ووصلت منذ أقل من ساعة. وقيل لي يا آنسة مانشستر أنك تريدين أن تتحدثي إليّ».
قالت بصوت أبح
«نعم.. نعم».
وقال بن إذ لاحظ اضطراب صوتها:
«أأنت بخير يا كلير؟»
ونظرت إلى ليام بعين لا تستطيع أن تحول بصرها عنه. وواصلت تقول:
«اسمي ليس كلير يا بن. اسمي شارلوت. شارلوت مارتن. وآسفة لأنني خدعتك خدعة رديئة. أردت أن أتيح مقابلة للسيد هاملتون، فقد عرفتك من قبل. ولكن المفاجأة رتبت إليه».
ووجهت الكلام إلى ليام تقول:
«قالوا إنك سوف تتغيب حتى الجمعة».
«استطعت العودة قبل ما توقعت. كيف حالك؟»
«أنا بخير.. وكيف حالك أنت؟»
«بخير تام. وكيف حال الأسرة؟ هل هم جميعاً بخير؟»
«نعم.. شكراً».
ووجه ليام الحديث إلى بن:
«كانت الآنسة مارتن وأسرتها تعيش هنا في يوم من الأيام، وربما حدثتك بذلك».
كان بن لا يزال يعاني من اختلاط الأمر. وقال:
«عرفت أنها كانت هنا من قبل».
وأحضر الخادم المشروبات التي أمر بها ليام له ولضيفه ورفع ليام كأسه يقول:



«في صحتكما».
ورد بن بإجابة.. أما شارلوت فلم تقل شيئاً وتعجبت كيف أن يديها لم تكن ترتعش وهي ترفع الكأس بينما كان جسمها كله يرتعش من الداخل.
وسأل ليام بالمر:
«هل جئت إلى هنا من رحلات الصيد يا سيد بالمر؟ أم أنك تقضي إجازة فيها شيء من الاسترخاء؟»
«لا. أقصد نعم. ولكن أعتقد أن لديكما الكثير لتتحدثا عنه. فاعذراني».
ونظر ليام إلى ساعته وقال:
«لا. أنا من يجب أن ينصرف. قطعت عليكما الجلسة، وهناك مسائل كثيرة تحتاج إلى عنايتي بصفة عاجلة. سيكون بوسعي أنا والآنسة مارتن أن نتحدث فيما بعد. أُسعدت مساءً يا سيد بالمر».
ونهض ومد يده مصافحاً، وانحنى لشارلوت، ومضى بعيداً. فقد أحست أنها بحاجة إلى أن تمد يده لتقنع نفسها أنه هو الذي كان هنا حقاً. كانت تجده لا يزال قريباً. لم يتغير فيه شيء على الإطلاق. كان شكله كما عرفته طويل القامة ذا بشرة نحاسية، أزرق العينين، وبالنسبة ما أقوى الرجال بقامة على الأرض.
ونظر بن بعد أن تركهما ليام عدة لحظات واقفاً. وحاولت شارلوت أن تجبر نفسها على أن تعرض رد الفعل لديه في الدقائق القليلة الماضية وسمعت بينما كانت تقول:
«آسفة أن كذبت عليك يا بن.. اكتشفت الآن أنني كنت على درجة كبيرة من الغباء عندما استخدمت اسماً مستعاراً».
وعلّق وقال:
«لا يهم.. لا تشغلي بالك بـ... بـ... شارلوت».
وابتسم وقال:
«سيمضي بعض الوقت قبل أن أتعود على مناداتك باسمك.. شارلوت».
«أنت مندهش أنك ما زلت تتحدث إليّ».
«أوه؟ لا تقولي ذلك.. فأنا واثق أنه كان لديك من الأسباب ما جعلك تفعلين ذلك».

وأعرف أن الموقف يحتاج إلى حد ما، فعندما ظهر هاملتون بدا عليه الاضطراب ولكنه كان يتصرف ببرود تام».

«نعم، كان يبدو، أليس كذلك؟ شديد البرودة».

وتنهدت:

«آنسة مارتن، وأنا يمكن أن نتحدث فيما بعد».

وقال بن:

«لا أود أن أكون متطفلاً، ولكن لدي إحساس بأنه من الأفضل أن تحكي لي... أعتقد أنك تعرفين ذلك الرجل».

وسألته مذهولة:

«هل بدا علي ذلك؟»

«لا... ولكن بدا أنك أخذت بالمفاجأة لبعض الوقت».

«هل نذهب إلى مكان نحس فيه بأننا أكثر عزلة؟ أحس أن الضوضاء زائدة في هذا المكان الليلة».

«بالتأكيد.. ما رأيك في الشرفة الخارجية؟»

وجلسا على كرسي هزاز عند طرف الشرفة الخارجية، وكان لا يزال بوسعهما أن يسمعا ولكن بدرجة خافتة وقال بن:

«من حسن الحظ أن هاملتون جاء في وقت أبكر مما يتوقع، ولا بد أنك أحسست بالصدمة عندما تم تقديمه لك».

«نعم، كان ذلك إحساسي».

«من حسن حظك».

«لقد تحدث الكثير في يومين... فلو لم يعد يوم الجمعة ربما كنت قد وقعت في حبه».

«أو ربما بن في خمسة أيام...»

«أعرف.. ولكني أحس بالوحدة.. وأنت جميلة، وهذا المكان تلتهب فيه العواطف. وعلى أي حال أوضحت منذ البداية أنك مشغولة بشكل ما، فلو حدث ذلك لما كانت غلطتك. أعتقد أن كثيرين من الرجال قد يقعون في حبك يا شارلوت



لو أنك شجعتهم على ذلك. إنك شخصية تحب، وليس لهذا علاقة بمظهرك. فالعنصر الهام الجذاب هو شخصيتك، وإذا كنت قد أحببت هاملتون وهو لا يبادلك الشعور نفسه فلا بد أن في عقله خللاً».

ولما لم تجب واصل يقول:

«وربما هو مهتم بك بالفعل، ولكنه مرتبط على هذه الشاكلة؟»

«أبداً لا، لا شيء من هذا... إنه غير مرتبط بأحد».

ووجدت نفسها للمرة الثانية في أسبوع واحد تحكي ما حكته لأليسا بعد أن ظلت ساكتة لسنوات.

وعلق بن:

«فهمت، وبعد أن قابلته الآن ألا تزالين تحسين بالشعور نفسه؟ ألم يتغير عن صورته التي في ذاكرتك؟»

«إنه هو هو تماماً... ولكنه لم يبق معنا سوى دقائق قليلة، ربما يكون قد تغير وربما عندما أتكلم معه...»

وتوقفت ثم واصلت تقول:

«ولكنه لم يكن شديد الحماس للكلام معي... أليس كذلك؟»

«كلا، ولكن للحق فأنت أيضاً لم تظهري حماساً كبيراً. ولم توضحي له أنك كنت معي فقط لتمضية الوقت حتى يعود. لو كنت في مكانه ووجدت فتاتي التي لم أرها لأربع سنوات تتبادل الرقص مع شخص آخر... لتسربت إلي الشكوك».

ومضى يقول:

«وزيادة على ذلك، لا أعتقد أننا نشعر أن نبقى هنا لفترة أطول... فلنترك الآخرين لما لديهم... هاملتون بالطبع شخص حقيقي... وربما هو ينتهز الفرصة الآن ليجدك وحدك. فهيا بنا إلى الداخل ونتوزع بعضنا على مرأى من الآخرين وبعدها أذهب إلى غرفتي لأكتب بعض الرسائل... وبوسعك أن تجلسي في قاعة الاستقبال قليلاً. ولا أعتقد أنك ستبقين وحدك لفترة طويلة».

وسألته شارلوت:

«هل أنت واثق من ذلك؟»
«أنا واثق».

ولكنه كان مخطئاً.. إذ جلست شارلوت بعدها قرابة ساعة في قاعة الانتظار تصلي كي يظهر ليام ثانية ولكنه لم يفعل، وصعدت الدرج بفتور وهي تعرف أنها لن تجد سبيلها إلى النوم وأنها في صبيحة اليوم التالي سوف تصحو منهكة وعلى غير استعداد لمقابلة أكثر فشلاً معه.

وفكرت: كان جديراً أن أفكر في الغيرة؟ لماذا لا أستطيع أن أنسى ليام وأحب شخصاً آخر مثل بن؟

وعندما دخلت غرفتها وأشعلت الضوء، وجدت مظروفاً في غرفتها. هل هي رسالة من بن؟ وخلعت رداءها وعلقته، واسترخت في كرسيها قبل أن تفتح الرسالة لتقرأ:

«أتسمحين بأن نأخذ القطار معاً في الثامنة صباح الغد إلى كرنج التولين؟»

وكانت الرسالة موقعة بالحرف الأول «ل».



٥ - [illegible] من [illegible] ولكن [illegible] الحرية في [illegible]

من [illegible]

وبذلت شارلوت جهداً كبيراً لتتظاهر بعدم التأثر عندما خرج [illegible] من موعد القطار مع ليام... كانت تمشي على مهل في طريقها إلى كرنج التولين مع أنها ظلت تنتظر ذلك منذ الشروق بفارغ الصبر ثم بدلت ثيابها أكثر من مرة لتبدو كأحسن ما تكون عند اللقاء. وانفتح باب الكوخ الخشبي على الممر عندما اقتربت وأشار ليام إليها بالدخول وعظامها تذوب تحت نظراته. لتخطو من غرفة الجلوس إلى صدر تلك أشجار الكروم يظل زاوية مائلة على الشاطئ الصغير.

واختفى في الداخل لحظة بعد أن أجلسها حول منضدة زجاجية مستديرة، وعاد ومعه إناءان بهما شرائح الكريب فروت وإناء آخر كبير مليء بالقهوة وجلس على الطرف المقابل من المنضدة يقول:

«لقد رجعت يا شارلوت... هل وراء الزيارة سبب خاص؟»

وغمست ملعقتها في الفاكهة الطازجة قائلة:

«جئت ألقي العطلة وأستطلع حال المكان... كنت ألا أعرفه بعدما أدخل عليه من تغييرات، لكنه كما قالت [illegible] تشغل كثيراً وتعطي وقتك للعمل ولا تجد فرصة للمتعة. هل أصبحت حقاً من ملوك المال؟»

«أنتهي إلى حد ما... وأجد لذة عندما أجني من لا شيء... وأنت تعيشين في لندن على ما أعتقد. هل تجدين الحياة هناك؟»

«هناك الأعمال المحررة والأعلام من الناس وأفضل المتاجر والمعارض، وحفلات الموسيقى»

«ولكن، ما عملك بالضبط؟»

«مديرة أعمال لرئيس إحدى الشركات العالمية للاستشارات»

«صرت في غاية الأناقة [illegible] وكأنك عارضة أزياء»

«أشكرك.. لعلّ صرت أفضل حالاً مما كنت عندما رحلت من هنا وبدوت [illegible] على النعامة النحيلة. كان شعري كعرف [illegible] وكانت [illegible] من النمش»

«كم من الوقت تقضين هنا؟»

«تسعة أيام أخرى»

«هل تواصلين إجازتك في مكان آخر؟»

«كلا .. سأعود إلى لندن»

وقال وهو يقدم إليها سلة العنب:

«رحلة طويلة ومكلفة لأسبوعين فقط لابد أنك تفتقدين [illegible]»

وقالت في شيء من اللامبالاة:

«طبعاً.. أتذكر وأنا لا أنظر الآن.. [illegible] من فضلك»

ونظرت إلى شجرة الكرمة التي تلقي ظلالها الراقصة على الشرفة وقالت:

«لم أعد بعد [illegible] هذه الأرض.. كانت [illegible] في يوم من الأيام»

ولمعت عيناها غضباً وقالت:

«يبدو أنك [illegible] بعض الشيء يا ليام. هل تخليت عن شبابك [illegible] وأصبحت تفضل [illegible] العمل على الحب؟ أتذكر [illegible] تصرعني [illegible] وأنا في الثامنة عشرة من عمري؟»

«نعم أذكر ولكن بدون ندم»

[illegible] وواصلت تقول:

«كثيراً ما فكرت فيما كان سيحدث لو أنني استجبت لإغرائك في تلك الليلة [illegible]»



«نعم... إنك لم تنس بالتأكيد.. ماذا كنت تفعل لو أنني قبلت عرضك ورحلت معك إلى [illegible]؟»

وقال في لهجة مقتضبة:

«لا أعرف. لماذا رجعت يا شارلوت؟»

«قلت لك... لأقضي الإجازة.. ولأجدد صلتي بأصدقائي القدامى.. ولكن أحدهم ليس مسروراً لرؤيتي»

وعلق قائلاً:

«أنا.. مسرور بالطبع.. ولكنك تغيرت كثيراً وليس من السهل أن نلتقط الخيوط بعد الغيبة الطويلة. هل تخرجين في إجازتك باسم مستعار [illegible]؟»

«أردت أن أجعلها مفاجأة لك»

«ربما أنه الذي فاجأك.. وأرجو ألا أكون قد سببت لك أي مشكلة في الليلة الماضية»

«على الإطلاق.. ولماذا تظن ذلك؟»

«أحسست بشيء من الضيق في سلوك [illegible]»

«لقد تخيلت شيئاً لا وجود له.. فليس هناك شيء بيننا ولم أتعرف به إلا منذ بضعة أيام ومعلوماتي [illegible] لم [illegible] من الأزمة التي يعيشها بسبب فقد زوجته ثم أنني لا أبحث عن إثارة غرامية»

ونظر إلى يدها اليسرى وقال:

«أرى أنك لم تتزوجي أو تخطبي بعد.. أم أن عدم وجود الخاتم مسألة مقصودة؟»

«كلا.. فأنا ما زلت حرة»

«ربما لا ترغبين الزواج.. كما تفعل [illegible]»

«لا ينبغي أن تصدق كل ما يقال عن المجتمع [illegible] ربما ينطبق ذلك على قلة من الناس ولكن ليس على الغالبية»

كانت المحادثة [illegible] وبعد صمت دام لحظة قالت شارلوت:

«حسناً.. لاشك أن لديك أعمالاً تستحق اهتمامك أكثر من الحديث عن الماضي... ومن الأفضل أن أتركك تهتم بها»

وتبعها ولكن شيئاً لمع في عينيه الزرقاوين القاسيتين وتوقعت أن يقول: «ليذهب العمل الى الشيطان! سأمضي اليوم معك». لكنه بدلاً من ذلك قال: «يجب أن نتحدث ثانية في وقت آخر».

وهرولت «شارلوت» الى المبنى الرئيسي تفكر بمرارة: «هكذا أعيش على الأمل حتى الآن: انه لم يحبني ولن يحبني».

واعترض البواب طريقها، وسلمها رسالة مغلقة قائلاً:

«ترك السيد «بن» هذه الرسالة لك يا سيدتي».

«أشكرك».

وفتحت الرسالة، وقرأت فيها بخط «بن» الواضح الجميل:

«عزيزتي ـ غادرت الفندق وأنا أكره رغبتي في أن أودعك شخصياً، وعندما تمسكين هذه الرسالة أرجو أن يكون قد تم إصلاح كل ما بينك وبين «هاملتون». حظاً سعيداً يا «شارلوت» وشكراً على الذكريات الجميلة الغالية. المحب «بن»».

كان «بن» غادر الفندق بالفعل وربما حاولت أن تتصل به.

وصعدت الدرج منهكة كأنها كانت تخسر يومها مع أن الوقت لا يزال في الصباح. ووقفت أمام باب الغرفة تبحث عن المفتاح ودموع الأسى على وجنتيها، وفاجأتها «فيوليت» تقول:

«صباح الخير يا سيدتي. هل تريدين شيئاً ما؟».

«أهلاً يا «فيوليت».. معذرة فأنا على عجل».

وأغلقت الباب لتختفي عن الأنظار آملة ألا تكون «فيوليت» قد لاحظت بكاءها.

ودق جرس التلفون في غرفة «شارلوت» بعد أن دخلتها بعشر دقائق. وكانت قد خلعت سترتها البيضاء وألقت بها على أرض الغرفة ودفنت وجهها في الفراش. وظل الجرس يدق لمدة دقيقة، فرفعت وجهها الذي أنهكه البكاء ورفعت سماعة التلفون، وقالت:

«نعم».

«شارلوت؟ هل أنت بخير؟».



كان لحديث «ليام» رنين لم تفهمه على الفور وأكمل قائلاً:

«وفكرت «فيوليت» تنظرين الى غرفتك باكية.. فطمأنيني».

«كان في عيني رمش.. وخرج الآن».

قال: «آسف للإزعاج».

ووضعت «شارلوت» السماعة واستسلمت لموجة أخرى من الأسى والشقاء. وبعد ذلك بدقائق عندما سمعت مفتاحاً يدور على عجل في قفل باب جناحها من الخارج، ومضت لتفتح الباب وتوقعت أن تظهر «فيوليت» على باب غرفة النوم ولكنه كان «ليام» وكان أول ما قاله:

«انك تبكين».

كان الغضب قد بلغ «بشارلوت» مبلغه حتى أنها لم تفكر بستر جسمها وكل ما عليها ملابسها الداخلية، لا تقل حشمة عن رداء البحر، وانفجرت تقول:

«كيف تجرؤ على الدخول؟ فقط لأنك..».

وتلعثمت ولم تستطع أن تكمل.. فقد احتواها بين ذراعيه وعانقها.. كأنما ليس هناك أربع سنوات الى تلك الليلة التي لا تنسى قبل نفيها عن الجزيرة. لكن الأمر مختلف تماماً. لم تعد المرأة طفلة كما كان ينظر اليها في ذلك الزمن مشاعرها وتحقق من أنها مشاعر دائمة.

ولم يقل «ليام» في هذه المرة ما قاله في المرة السابقة، عندما ذهب الى الفرقة، لكنه قال:

«يا الهي.. لو عرفت كيف افتقدتك».

وظل العناق بطريقة تعبر عن التمزق العاطفي الذي سببه لها القلق منذ زمن بعيد، واستجابت هذه المرة بكل عواطفها، ثم قال لها:

«أنت أيتها البلهاء الصغيرة! لقد كنت على حق، فهل كنت تعودين الى انكلترا بدون أن تعطيني فرصة أتأكد من أنك لم تتغيري؟».

«وكيف كان لي أن أعرف أنك أنت تغيرت؟».

«أنا لقد أحببتك دائماً.. حتى في تلك الليلة التي جئت فيها الى كل الطرق لأجعلك تكرهينني!».

«وأخيراً كنت تحبني يا ليام؟»
«منذ اليوم الذي حضرت تعالجني من الصدمة.. تمنيت أن أكون معك في العشر بين الأسبوع فقدانه».
«ولماذا تركتني أذهب؟»
«يا عزيزتي.. واعتقد كانت تعجب بي ولكنها كانت تعرف ماضي فخشيت ألا توافق على زواجنا».
وواصل يقول:
«لا أستطيع أن أصدقك.. كنت في الليلة الماضية وفي هذا الصباح تنظرين إلي ببرود لدرجة أنني أحسست أنك رجعت تحسبينا تنفرين مني».
«لم يكن بروداً يا ليام؛ كان توتراً لم يكن باستطاعتي أن أعرف ما يدور في رأسك».
«حتى الآن؟»
«الآن.. نعم.. حتى تبوح لي بكل شيء».
وضم يديها ولكنه تصلب وابتعد عنها فجأة، وقال:
«لا زال بيننا حاجز يا شارلوت.. ليس من حقي أن أطلب إليك أن تكوني زوجتي».
«ولم لا؟»
«ستدرين السبب لماذا وسأنتظرك في غرفة الجلوس».
وقصدت وجهها وتنهدت تنهداً طويلاً ولحقت به هناك.. فقال:
«تذكرين القصة التي سمعتها من المرأة العجوز التي كانت تعمل عند أسرة سوليفان؛ طبقاً لرواية تلك المرأة فإن شون سوليفان كان وحشاً قتل زوجته بطريقة شاذة وأصيب في النهاية بنوع من الاكتئاب والتهيؤ».
«أليس هذا صحيحاً؟»
وهز رأسه قائلاً:
«قتلها حقاً لم أطلق الرصاص على نفسه ولكن باقي القصة كان عكس ما سمعت تماماً فإنه لم يكن رجلاً شريراً.. وكان فرق السن بين الزوجين أقل مما هو



بينه وبينها، ولم تجبر روزالين على الزواج منه. واشترى الجزيرة ليحقق لها إحدى نزواتها لتبني بيتاً هنا. وأما عن القول بأنها تزوجته لتنقذ أسرتها من الإفلاس فهو هراء.. فلم يكن أهلها ملاك أرض جار عليهم الزمن، وكان أبوها موظفاً عادياً في مكتب الخارجية».
وعلقت شارلوت:
«لقد تحدثت كما لو كنت تكرهها».
«كنت أحس تجاهها بأكثر من الكراهية.. ولم أشعر نحوها بحب وقد تدهشين لهذا. فليس من الطبيعي أن يكره الابن أمه».
وواصل يقول:
«أصيب سوليفان لأنه مادامت كذب ولكنني غير متأكد مما إذا كان حقاً أبي.. وسيظل هذا سراً».
«حسن.. ولكن ماذا تعني؟»
«لقد قتل سوليفان روزالين لأنها بعد أن جعلت حياته جحيماً ذهبت معه إلى حد لا يمكن أن يحتمل.. لم يفقد أعصابه بالمعنى العادي، ولكنني أعتقد أنه أصيب بحالة فقدان للوعي. فقد قالت له في تلك الليلة شيئاً لا يحتمل أفقده كل سيطرة على نفسه. قالت إنني لست ابنه. فاستجاب للغريزة غضبه ودفعته إلى أن يوقفها حتى لا تكرر ما قالته».
«ولكن، هل سمعت ذلك بنفسك؟»
«نعم».
«أوه يا ليام.. يا حبيبي».
واقتربت منه وتركت ذراعيها يلتفان حوله.
وأزاحها في رقة وهو يقول:
«لم أقل هذا لأكسب عطفك يا شارلوت.. ولكن لأجعلك تعرفين مدى المخاطرة إذا ما قبلت الزواج مني».
«أية مخاطرة؟ عن أي شيء تتحدث؟»
«لو كان سوليفان أبي فأنني ابن قاتل.. وإذا لم يكن أبي فأنني مجهول في

نسبي.. والشيء الوحيد الثابت أن أمي كانت امرأة سيئة الخلق»

«لا أتصور يا ليام أن يتحدث رجل في مثل ذكائك بالطريقة التي تتحدث بها السيدات التافهات عن الوصلات... من ذلك الذي يعتبر الوراثة نوعاً من الأعذار؟ إذا لم تنجب أطفالاً فإنك لن تعترض ولا شك على تبني أحد الأطفال... فلا تشغل نفسك بمثل أولئك؟ الانسان ليس نتاجاً للخصائص الموروثة فقط... وإلا لكان أبناء العباقرة ولكان الأغبياء ينجبون دائماً أغبياء... بل العكس قد يحدث، كما يحدث أن يتحول طفل من أسرة شريرة كادحة الى حاكم مقتدر».

«إنك تحسنين شيئاً»

«ربما حزنت»

«حتى لو كانت الوراثة لا تورثك... فإن سجل حياتي لا يستحق الاعجاب»

وقالت في جدية:

«رغم ملابسات طفولتك فإنك تستمتع بالاستقرار النفسي... عمري الآن اثنان وعشرون سنة يا ليام، وأعرف أن أفكر وأن أقرر من هو الرجل الذي أريد أن أتزوجه.

نعم... مررت بنزوات لا بأس بها ولابد أن أعترف بأنني عندما سمعت بتجاربك للحياة في لندن كنت أستطيع قضاء الليل أنظر الى صورتك التي أحتفظ بها وأفكر كم من الرجال يحاولون غوايتك؟»

«ولكن إذا كنت قد استطعت مقاومتك وأنت الشخص الذي أحب... هل كان من السهل أن أستسلم لغيرك؟»

«كنت أخشى أن تحضري لرحلة لا تهتمين فيها بأعمالي»

«لم أكن أعرف أن لديك صورة فوتوغرافية لي»

«إنها الصورة التي التقطها ريكاردو توريللي... والتي جعلتك تبدين أكبر سناً مما كنت آنذاك»

«كنت دائماً تبدو لطيفاً معي... وذات مرة كنت نائماً نوماً عميقاً على الشاطئ، فأيقظتك وكنت حنوناً»

«كنت أحلم بك كامرأة ناضجة وبأنني أتذوق الحب معك... والآن كبرت



بالفعل... وبوسعنا ذلك»

واحتواها بذراعيه وأغلقت عينيها، وهي تفكر في سعادة أنه سيكون عليها أن ترسل غداً عدداً من البرقيات... وستبعث بعد ذلك كل الاعتبارات العملية واستسلمت لشعورها بفيض من السعادة... السعادة لأنها ستصبح زوجة ليام أخيراً.